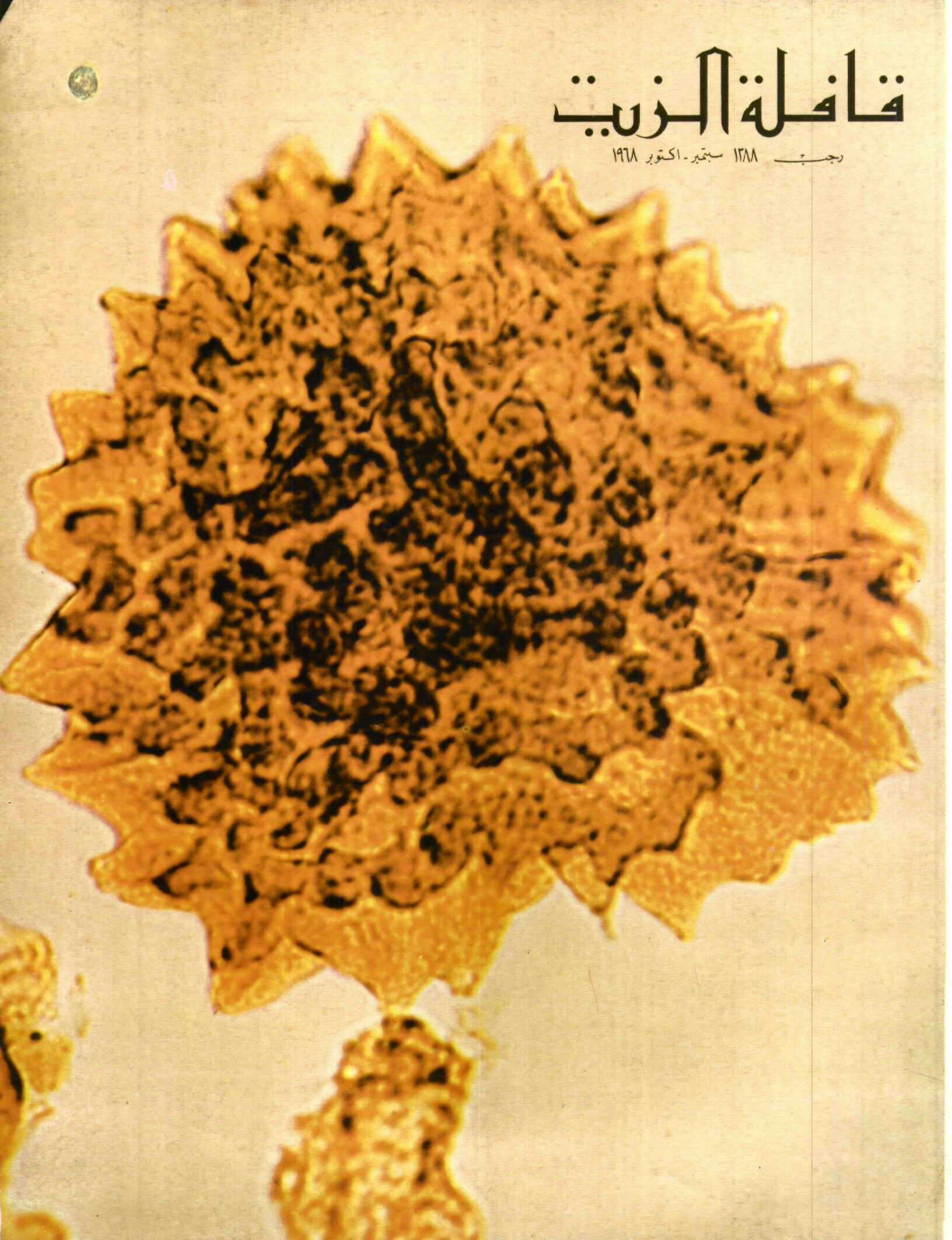


قافلة الزيت

رجب ١٣٨٨ سبتمبر - اكتوبر ١٩٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد السابع — المجلد السادس عشر

تصدر شهرياً عن :
شركة الزيت العربية الأمريكية
لموظفي الشركة - توزع مجاناً

رئيس التحرير والمدير المسؤول: منصور مدني
المحرر المساعد: عوني أبو كشك

العنوان : صندوق رقم ١٣٨٩
الظهران ، المملكة العربية السعودية

صورة الغلاف



احد المستحاثات النباتية مكبر الى نحو ٢٥٠٠ مرة ، ويقدر عمره بنحو ٣٦٠ مليون سنة .

تصوير : د. و . همر

مطابع المطوع
al mutawa press

محتويات العدد

الصفحة



عودة الى النقاء

القافلة تسير

يقدر العلماء أن المنجزات العلمية والصناعية التي تمت خلال القرن الأخير تفوق تلك التي تمت منذ ظهور الانسان على وجه البسيطة حتى مستهل ذاك القرن . وقد يأتي زمن تفوق المنجزات العلمية في يوم منه هذه التي تتم في قرن من زماننا هذا . ولكن ما مبلغ جدوى هذه المنجزات ونتائجها الحضارية للكائن البشري والانسانية ؟ والى أي مدى سيصل ركب العلم في مسيرته ؟

لا شك أن الانسان يدين بما ينعم به من رفاه ورغد الى الحضارة المعاصرة ، والى المنجزات العلمية التي نرى آثارها في كل ما حولنا . ومن أهم هذه المنجزات الآلة التي أصبحت تقوم بالكثير من الأعمال بدقة أكثر واداء أفضل . والانسان هو العقل المفكر الذي يصنع الآلة ، ثم يسخرها لمآربه لتأتي له بأفضل النتائج .

ويزداد الاعتماد على الآلة بتحقيق مزيد من المنجزات العلمية ويقل – تبعا لذلك – شأن الأيدي العاملة البشرية ، فيشعر الانسان بالحيرة والتيه .. ذلك ان الحضارة المعاصرة ركيزتها الآلة ، والآلة وليدة العلم ، لا الشعور . وهكذا يضطر الانسان – للحاق بالركب الحضاري – الى السعي الحثيث والدأب المتواصل ، وكأن قوة تطارده لتقضي عليه وتتخطاه ، ان هو توانى في سيره لحظة . وفي هذا يقول المؤرخ الانكليزي المعاصر أرنولد توينبي : «ان الانسان كان ميالا دائما الى التأكيد على طاقاته العقلية، وهذا هو السر في تقدمه المادي الهائل ، ولكنه في الوقت نفسه سر تدهوره» .

ولست أحاول بهذا أن أقلل من شأن الحضارة المعاصرة ومنجزاتها العلمية ، فاليها يعود الفضل الأكبر في ما بلغه الانسان من منزلة في مدارج الرقي والتقدم في العصر الحاضر ، انما أردت أن أورد أحد أعراض هذه الحضارة ، وهي حضارة ذات حسنات وسيئات ، وهذا عَرَض يُعَدّ من السيئات ، بيد أنه اذا ما قيس بفائدة التقدم العلمي بدا ضئيلا ، لا يعدم أن يتيسر له دواء .

وما هذا الدواء الا عودة الى النقاء من الشوائب الحضارية ، وصقل الروح بالتوفيق بين مادية العلم وروحانية الأديان ، ووصل الانسان بالطبيعة ، وخلق توازن انساني – حضاري كي لا يصبح الانسان مجرد آلة أو رقم . والى هذا ذهب غالبية المفكرين الغربيين بعد أن عاصروا المشكلة ووعوا دقائقها ، فأخذوا ينادون بالرجوع الى حظيرة الايمان . بيد أن النقاء وحده لا يكفي لتوفير حياة مستقرة هانئة تمتاز بالرغد والرفاه ، كما لا يكفي العلم وحده لذلك ، وانما يجب أن يتم التوافق والتعادل بينهما بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر .

اما الى أي مدى سيصل ركب العلم في مسيرته ؟.. فقد كان ذلك مدار بحث بين العلماء ، وما يزال .

قال بعضهم انه سيصل الى مالانهاية ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وعلق آخرون : . . أو يحطم العلم نفسه بنزق من الانسان وسوء استعمال منه لما لديه من امكانات ضخمة . وقال لفيف : .. فيعود الانسان الى سيرته الأولى كيوم ظهوره على وجه البسيطة . وقال جماعة منهم : .. بل يفنى مع فناء ما حوله (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) .

تلك مجرد آراء وتكهنات ، بيد ان المحقق ان ركب العلم سيسير قدماً ماشاء الله له ذلك وما شاء للانسان بقاء .

رئيس التحرير



بقلم الاستاذ عبدالله بن خميس

ما استأثر شيء باهتمام العربي ، وجمع رغباته ، وكلفه وحرصه مثلما كان للخيل . فقد غالى في أثمانها ، وسلسل أنسابها ، وبالغ في اكرامها ، وتفنن في أوصافها ، وجعلها مصدرا من مصادر عزه ، وركيزة من ركائز افتخاره ، وركنا يأوي اليه في الحفاظ على نفسه ، وأهله وماله .

ولعل واقع العربي الأول ، وما ألفه من حياة الغزو ، والكر والفر ، والصيال والنزال ، من أقوى الأسباب ، التي هيأت للجواد هذه المكانة ، ورشحته لهذا الاحتفاء .

ومن وصف الفرس عانق مسيل الفصحى رافد متكاثر ، ووهب مادتها مفردات شائقة رائقة . ومنه وشحت آداب العربية بصور حية ، وأخيلة بديعة ، ومنطلقات رحبة . وقد وصفوا في الفرس الرغبة والرهبة ، والعز والفخار ، وعلو القدر ونباهة الذكر .. فقالوا :

أعز مكان في الدنا سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

وقالوا :

أحبوا الخيل واصطبروا عليها
فان العز فيها والجمالا
اذا ما الخيل ضيعها أناس
ربطناها فاشركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم
ونكسوها البراقع والجلالا

وقالوا

أبيت اللعن ان سكاب علق
نفيس لا تعار ولا تباع
مفداة مكرمة علينا
تجاع لها العيال ولا تجاع
فلا تطمع أبيت اللعن فيها
ومنعكها بشيء يستطاع

واجتهد العرب في تحقيق أنساب الخيل ، والحفاظ على بيوتها ، وصون أصولها وفروعها ، وقسموها في النسب الى أربعة أقسام : عربي ، وهجين ، ومقرف ، وبرذون .

فالعربي : أو العتيق وهو ما كان أبواه عربيين ، لم يغمز أصله ، ولم تخدش أرومته ، وهو ما وصفه أبو تمام بقوله :

من نجل كل تليدة أعراقه
طرف مغم في السوابق مخول

والهجين : هو الذي أبوه عربي وأمه عجمية ، من الهجنة ، وهي العيب ، وهو ما عناه مرة ابن ذهل بقوله :

واذا تقابل مجريان لغاية
عثر الهجين وأسلمته الأرجل

والمقرف : هو الذي أبوه عجمي ، وأمه عربية ، قال ابن بسام :

بخلت عني بمقرف عطب
فلن تراني ما عشت أركبه

والبرذون : هو الذي أبواه عجميان ، قال السراج الوراق :

لصاحب الاحباس برذونة
بعيدة العهد عن القرط
اذا رأت خيلا على مربط
تقول سبحانك يا معطي
تمشي الى خلف اذا ما مشت
كأنما تكتب بالقبطي

وتبارى العرب في وصف ألوان الخيل ، فمدحوا الأشقر ، والأحمر ، والأدهم ، والأشهب ، والأصفر ، ووصفوا منها الغرة والتحجيل ، والدوائر ، وفصلوا أسماء المفاصل ، ومنابت الشعر ، وذكر الاسنان . كما أسهبوا في وصف طبائعها ، وفي أنواع صهيلها ، وذكروا النعوت الممدوحة فيها والمذمومة . وقالوا أن في الجواد عشرين اسما من أسماء الطير ضمن بعضها أبو حزرة شعرا ، حيث يقول :

وأقب كالسرحان تم له
ما بين هامته الى النسر
رحبت نعامته ووفر فرخه
وتمكن الصردان في النحر
وأناف بالعصفور من سعف
هام أشم موثق الجذر
وازدان بالديكين صلصله
ونبت دجاجته عن الصدر
والناهضان أمر جلزهما
فكأنما عثما على كسر
متحنفر الجنبين ملتئم
ما بين شيمته الى الغر
وصفت سماناه وحافره
وأديمه ومنابت الشعر
وسما الغراب بموقعيه معا
فأبين بينهما على قدر
وتقدمت عنه القطاة له
فنأت بموقعها عن الحر
وسما على نقويه دون حداته
خربان بينهما مدى الشبر
يدع الرخيم اذا جرى قلقا
بتوائم كمواسم سمر
ركبن في محض الشوى سبط
كفت الوثوب مشدد الأسر

وتحدثوا عن التقفيز ، وعن الأطوار ، وعلاماتها ، وعن خدمة الخيل وطعامها ، وعن تأديبها ، وتدريبها ، وتضميرها ، وكذلك عن كيفية السباق ، وحوز قصب السبق ، وهو أن يجعل في آخر المدى قصبة مركوزة ، يأخذها الأول ، فيقال حاز قصب السبق ، وهذا هو أصل المثل السائر . كما تحدثوا عن ترتيب خيل الحلبة – السباق – فسموا أولها المجلي ، ويليه المصلي ، فالمسلي ، فالتالي ، فالمؤمل ، فالمرتاح ، فالعاطف ، فالحظي ، فاللطيم ، فالسكيت . وربما سموها بغير هذه الأسماء ، وربما اقتصروا على ما دون العشرة ، وربما اكتفوا بتسمية الأول والأخير .

وهنالك خيول شهيرة يرجع عهدها الى الجاهلية والاسلام ، اشتهرت باسمائها ، وتناقلها الخلف عن السلف ، مثل الشيط ، وشولة ، والوجيف ، والورد ، وداحس ، والغبراء وهي من خيول الجاهلية . ومثل الظرب ، واللزاز ، واللحيف ، والسكب ، والمرتجز ، وهي من أسماء خيول النبي عليه الصلاة والسلام . ومثل اليعسوب ، وذو العنق ، والأجدل ، والعود ، ومجاج ، والنعامة ، وهي من خيول قريش .

ولقد وصف الشعراء العرب الخيل فأكثروا ، وتباروا في عرض شياتها وأمعنوا . يقول عنترة بن شداد العبسي من قصيدة له في وصف الخيول العربية :

ولرب مشعلة وزعت رعالها
بمقلص نهد المراكل هيكل
سلس المعذر لاحق أقرابه
متقلب عبثا بفأس المسحل
نهد القطاة كأنها من صخرة
ملساء يغشاها المسيل بمحفل
وكأن هاديه اذا استقبلته
جذع أذل وكان غير مذلل
وكأن مخرج روحه في وجهه
سربان كانا مولجين لجيأل
وكأن متنيه اذا جردته
ونزعت عنه الجل متنا أيل
وله حوافر موثق تركيبها
صمم النسور كأنها من جندل
وله عسيب ذو سبيب سابغ
مثل الرداء على الغني المفضل
سلس العنان الى القتال فعينه
قبلاء شاخصة كعين الأحول

وكأن مشيته اذا نهنهته
بالنكل مشية شارب مستعجل
فعليه اقتحم الهياج تقحما
فيها وانقض انقضاض الأجدل

ويبدع عوف بن عطية في وصف فرسه ، فيقول انه أعد للقاء أعدائه فرسا لا تقتات الا با للبن ، لذلك فهي سرعان ما ترد حمار الوحش اذا طرده سائسه . أما لونها فهو كميت كأنه لون الرداء الاتحمي ، المصنوع « بأتحم » من بلاد اليمن ، لم يترك به صانعه عيبا ، اما قلب هذه الفرس فذكي ، بأدنى اشارة من راكبها تعطيه ما يريد من أفانين الجري ، ولجنبيها تقويس سما فوق احشائها ، كأنه أيادي الغبيط أحكمت صنعته ، ورسغها شديد موثق ، فلا هو واهي العظم ، ولا فاثر العرق ، ولها حافر كأنه قعب مجوف ، يكاد الفأر يجد في تجويفه مغارة له ، ولها كفل كأنه قبة من الأدم ملساء مكتنزة :

وأعددت للحرب ملبونة
ترد على سائسيها الحمارا
كميتا كحاشية الاتحمـ
ـي لم يدع الصنع فيها عوارا
رواع الفؤاد يكاد العنيـ
ـف اذا جرت الخيل ان يستطارا
لها شعب كأيادي الغبيـ
ـط فضض عنها البناة الشجارا
لها رسغ مكرب أيد
فلا العظم واه ولا العرق فارا
لها حافر مثل قعب الوليد
يتخذ الفأر فيه مغارا
لها كفل مثل متن الطرا
ف مدد فيه البناة الحشارا

وصف امرؤ القيس جواده بسرعة الكر والفر ، والاقبال والادبار ويصفه في حالاته هذه ، بجلمود الصخر ، يحطه السيل من علو شاهق . وبما انه ضامر ، فهو مع ذلك جياش مؤات للعدو ، ويجيش تحت راكبه كما يجيش المرجل ، وكأنما هو في عدوه ، وجيشانه خذروف في يد طفل يُمره ، فلا تكاد تراه من شدة امراره . وأخذ من صفات الوحوش ما كمل بناء جسمه . فله خاصرتا غزال ، وساقا نعامة ، وعدو ذئب . وقفز ثعلب ، وكأن دماء قائدات الصيد بنحره عصارة حناء في لمة شائبة مرجلة . ويتابع الجواد طرده لبقر الوحش دراكا ، هذه بعد هذه ، ولما يدركه الاعياء ، أو يصيبه الكلال .

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل
على الذبل جياش كأن اهتزامه
اذا جاش فيه حميه حمي مرجل
درير كخذروف الوليد أمره
تتابع كفيه بخيط موصل
له أيطلا ظبي ، وساقا نعامة
وارخاء سرحان وتقريب تتفل
كأن دماء الهاديات بنحره
عصارة حناء بشيب مرجل
فعادى عداء بين ثور ونعجة
دراكا ولم ينضح بماء ، فيغسل

ومن أراجيز أبي نواس في وصف الفرس :

قد أغتدي والصبح ميال الطرر
والليل تحدوه تباشير السحر
وفي تواليه نجوم كالشرر
مسحق الميعة ميال العذر
كأنه يوم الرهان المحتضر
طاو غدا ينفض صيبان المطر
عن زف ملحاح بعيد المنكدر
اقنى يظل طيره على حذر
يلذن منه تحت أفنان الشجر
من صادق الوعد طروح بالنظر
كأنما عيناه في وقبي حجر
بين مآق لم تخرق بالأبر

والعرب تصف الخيل بصدق التوجس ، وقوة السمع ، فهي تعتمد على سمعتها أكثر من اعتمادها على بصرها ، كما ان الظبي يعتمد على شمه أكثر مما يعتمد على نظره ، ومن ذلك قول أبي العلاء المعري يصف هذه الظاهرة في الفرس :

كأن أذنيه أعطت قلبه خبرا
عن السماء بما يلقى من الغير
يحس وطء الرزايا وهي نازلة
فينهب الجري فعل الحادث المكر
من الجياد اللواتي كان عودها
بنو الفصيص لقاء الطعن في الثغر

ودقة أذن الفرس ، وانتصابها مرغوب في الخيل ، وهي من أمارات أصالتها . ويصف ذلك ابن هانيء فيقول :

وجاءت عتاق الخيل تردي كأنما
تخط لها أقلام آذانها صحفا

وقال آخر :

وترى أذنها كأعليط مرخ
حرة في لطافة وانتصاب

ويمتدح العرب في الخيل أن يكون شعر نواصيها طويلا غزيرا . يقول أمرؤ القيس في ذلك :

وأركب في الروع خيفانة
كسا وجهها سعف منتشر

كما ان القبل في العين ، وهو ميلها الى ناحية الأنف ، من عناوين النجابة عند الخيل حيث يقول ابن دريد :

شعثا تعادى كسراحين الغضا
قبل الحماليق يبارين الشبا

وما أبدع ما قاله أبو الطيب في وصف فرس :

ويوم كليل العاشقين كمنته
أراقب فيه الشمس ايان تغرب
وعيني الى أذني أغر كأنه
من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في اهابه
تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء أدني عنانه
فيطغى ، وأرخيه مرارا فيلعب
وأصرع أي الوحش قفيته به
وأنزل عنه مثله حين أركب
وما الخيل الا كالصديق قليلة
وان كثرت في عين من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها
واعضائها فالحسن عنك مغيب

وما أجمل ما قاله ابن هانيء الأندلسي في وصف الفرس :

وصواهل لا الهضب يوم مغارها
هضب ولا البيد الحزون حزون
حيث الحمام وما لهن قوادم
وعلى الريود وما لهن وكون
فلهن من ورق اللجين توجس
ولهن من مقل الظباء شفون
فكأنها تحت النضار كواكب
وكأنها تحت الحديد دجون
عرفت بساعة سبقها لا انها
علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق فيها انها
مرت بجانحتيه وهي ظنون

فما أجمل الخيل وأنبلها ، وما أحلاها وأغلاها ، وما أشد كلف العربي بها وأعظم رغبته . صحبته في الكر والفر ، وواتته في القنص والطراد ، وعلقت بها رغبته في الحلبة وميادين السباق ، وربطها أمام بيته فزادته هيبة وفخرا .. « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة ■

الاغتراب واللقاء في الأدب العربي

بقلم الاستاذ محمد عبد الغني حسن

قد يتعرض الانسان في سبيل العيش وكسب الرزق أو طلب العلم أو الانتجاع أو محنة نزلت بأرض مولده أو غيرها من الأسباب ، للارتحال عن وطنه والاغتراب عنه زمانا يطول أو يقصر تبعا للظروف ، ووفقا للملابسات المحيطة به والمؤثرة فيه .

والاغتراب قديم قدم الانسان ، وقدم مطامحه ومطامعه والمناسبات التي تتحكم فيه ظعنا واقامة . فقد كان العرب منذ أقدم عصور الجاهلية يرحلون من مكان الى مكان ، ويغتربون من أرض الى أرض ، لأنهم أهل بداوة وارتحال ، لا أهل حضارة واستقرار ، ولا بد أن ذكرياتهم بأوطانهم الأولى تحملهم دائما على الشوق والحنين اليها ما داموا مغتربين عنها . ومن هنا ساد في الشعر الجاهلي لون من شعر البكاء على الأطلال بعد الوقوف عليها ، أو استيقاف الصحب لديها . حتى لقد كان هذا الوقوف على الأطلال البالية المحيلة مفتتحا لكثير من قصائد الشعر الجاهلي تميز بها هذا الشعر ، الى أن جاء « أبو نواس » في العصر العباسي فدعا الى ترك الوقوف على الأطلال والبكاء عليها ، ما دام لم تعد هناك أطلال ولا ارتحال . فكان بهذا داعيا من دعاة التجديد في عصره .

والحق أن الغربة عن الوطن — طويلة كانت أم قصيرة — قد طعمت الأدب العربي ، شعره ونثره ، بلون ظل متميزا به منذ القدم الى زماننا هذا . فان الغربة وما تثيره في النفس من حنين الى الأوطان قد أمدت حصيلة الأدب العربي بفيض غامر من التعبير عن الحنين ووصفه ووصف آثاره في النفس . وصفة مكابدة المغتربين له ومعاناتهم اياه ..

والواقع أن الاغتراب اذا كان داعيا من دواعي الاثارة والتهييج والتلذيع بالذكريات ، فان (العودة) من الغربة والفرحة باللقيا بعد الغياب قد تكون داعيا آخر من دواعي المسرة والغبطة التي لا يجد الشاعر أو الكاتب مفرا من التعبير عنها . فالشاعر المهجري المحلق شفيق معلوف قد قضت عليه الأقدار أن يغترب الى البرازيل سنة ١٩٢٦ ، فلما أسعدته الأيام وأسعفته بعودة لزيارة وطنه الحبيب سنة ١٩٣٧ نظم قصيدة عنوانها « الايـاب » يقول فيها :

أي صوت ادعى غداة التنادي
من نداء الأكباد للأكباد ؟
صدقت ذمة الزمان .. فعدنا
ننفض الجمر من خلال الرماد

هاك ملهى الصبا فيا قلب لملم
ذكرياتي على ضفاف الوادي

وما أرق المعلوف صاحب « عبقر » وقد اعتل لبنان في ذلك الزمان – وهو شافي العلل – فيتساءل الشاعر في حنان ورفق :

رب داء يحز لبنان في الصلـ
ـب ولبنان مبرأ الرواد
أمن العائدين أنت اليه
عمرك الله ، أم من العواد ؟

ولما عاد صاحبنا الى وطنه للمرة الثانية سنة ١٩٥٥ أوحى اليه هذا اللقاء الثاني بقصيدة عنوانها « غصة العائد » استرجع فيها بعض ذكريات صباه ويفوعه بقوله :

سائل (زحلة) لا جفت دواليها
أي العناقيد لم يعصر لنا فيها
نرقى الروابي والأكباد ظامئة
لا نشرب الماء الا من أعاليها

أما الشاعر المهجري الياس فرحات، فله في العودة الى الوطن – سواء تمت أو لم تتم – قصائد منها بائيته التي يقول فيها مخاطبا نفسه :

كم تحملت من البين .. وكم
ذقت فيه من أفانين العذاب
لا تظني ما نراه حلما
انه اليقظة توحي بالصواب
نحن في العش الذي ظللنا
والخوافي زغب فوق الاهاب

ومنها قصيدته الهمزية . أما قصيدته النونية فقد ألقاها في قرية « كفرشيما » اللبنانية حينما احتفلت بعودته اليها زائرا سنة ١٩٥٩ . وفيها يقول :

عاد ابنك النائي اليك ، وقلبه
يروي حديث الشوق بالخفقان
عيناه تائهتان ، باحثتان في
دنياك عن رفقائه الفتيان
متلفت متسائل عن صحبه
وبصحبه لعبت يد الحدثان

وقد عاد فرحات الى وطنه بعد عيشة غير راضية في المهجر ، وهبه عاد بالدنيا العريضة ، أفيعد عائدا بشيء له قيمة ؟

عاش المهاجر في المهاجر شاكيا
بل حاسدا من مات في لبنان
باع الشقي شبابه بنقودها
بيع المغامر حنطة بزوان
لو عاد بالدنيا العريضة بعد ما
فقد الفتوة عاد بالحرمان

أما جورج صيدح الشاعر المهجري الوفي فله في « العودة » خطرات رائعة . ولعل أروعها قصيدته الحزينة « أم النسور » التي يخاطب فيها أرض مولده دمشق قائلا :

أم النسور تفرسي وتأملي
أعرفت وجه القادم المتهلل ؟

ولعل حزن صيدح وهو في موقف اللقاء والعودة يرجع الى أنه عاد فرأى الزمان قد هاض جسمه ، وبدل قسماته ، وهدل ريشه بعد غربة طويلة نائية كاد ينكره معها الأهل والصحب ، فأصبح معها – في الوطن – في غربة ثانية ولكنها حلوة لديه كما يقول :

غربة ثانية .. ننشدها
ان تكن بلوى فما أحلى البلايا !

ولن يفوتنا هنا الاشارة الى القصيدة الميمية التي نظمها الشاعر المهجري الياس قنصل حين عاد الى وطنه زائرا مدعوا . فقد عبر فيها عن لمع السراب المادي الذي غره بالهجرة والاغتراب ، فبدل أرضه – مهد الأنبياء – بساحة ما فيها غير العجمة .

ولقد أصابت الغربة طائفة كبيرة من شعراء العرب منذ الجاهلية ، فعبروا عن مواجدها بطرائقهم الخاصة ، وسجلت الدواوين والكتب ما قالوه . فابن الرومي يعلل لنا أسباب الحنين الى الوطن بقوله :

ولي وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيري له الدهر مالكا
وحبب أوطان الرجال اليهمو
مآرب قضاها الرجال هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمو
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وعبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ومنشيء الدولة الأموية فيها يحن الى الشام ، ويرى نخلة في احدى ضواحي قرطبة فتذكره بوطنه وتهيج أشجانه فيقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي

وأبو العلاء المعري يغترب عن أرضه بالمعرة الى بغداد حاضرة الخلافة . فلا ينقع غلته ماء الكرخ . ويحن الى وطنه قائلا :

وماء بلادي كان أنجع مشربا
ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
ويا وطني ان فاتني بك سابق
من الدهر فليهنأ لساكنك البال
فان استطع في الحشر آتك زائرا
وهيهات لي يوم القيامة اشغال

وهذا النزوع في البيت الأخير يذكرنا بنزوع الشاعر أحمد شوقي في قوله :

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني اليه في الخلد نفسي

وابن حمديس الصقلي المتوفى سنة ٥٢٧هـ تفرض عليه المحنة التي نزلت بوطنه صقلية أن يغترب عنها غربة دائمة فيوحي اليه المغترب بقصائد منها سينيته التي يقول فيها :

أعاذل دعني أطلق العبرة التي
عدمت لها من أجمل الصبر حابسا
فأني امرؤ آوى الى الشجن الذي
وجدت له في حبة القلب ناخسا

والحصري القيرواني صاحب قصيدة « يا ليل الصب » المشهورة والمتوفى سنة ٤٨٣هـ تفرض عليه نكبة مرت بوطنه القيروان أن يتركه الى الأندلس ، فيظل في غربته دائم الحنين الى الوطن في شعر رقيق .

وابن زيدون الشاعر الأندلسي يغترب من قرطبة الى « بطليوس » بأرض الأندلس ، فتفيض شاعريته بالحنين الى قرطبة والى أحبابه فيها فيقول :

هل تذكرون غريبـا عاده شجن
من ذكركم ، وجفا أجفانه الوسن ؟

ولا ينفرد ابن زيدون من بين شعراء الأندلس بالحنين والشوق الى الوطن . فهناك ابن خفاجة القائل :

فاذا مـا هبّت الريـح صبـا
صحت : وا شوقـي الى الأندلس !

ولقد أثّر الاغتراب في شاعرين من شعراء زماننا هذا ، أولهما محمود سامـي البارودي الذي قضى بضعة عشر عاما مغتربا في منفاه بجزيرة « سرنديب » ، فأوحت اليه المناسبة بشعر كثير كثرة تلفت النظر ، ويمكن الرجوع اليه في ديوانه . وثانيهما الشاعر أحمد شوقي ، وله في غربته الجبرية بالأندلس قصائد منها نونيته التي عارض بها ابن زيدون ، أو سينيته التي عارض بها البحتري ، وبائيته التي قالها في « العودة » واصفا اللقاء للوطن كأنه لقاء الشباب :

ويا وطني لقيتك بعـد يـأس
كأنـي قد لقيت بـك الشبابـا

وقد يمتد أثر الغربة الى الشخص المودّع « بكسر الدال » لا الى المغترب المودّع « بفتح الدال » فتنتج لنا لونا من الأدب المتميز ، شعرا كان أم نثرا ، بل قد تنتج لنا رسائل رائعة من الآباء الى الأبناء المغتربين . فهذا عمر بن الخطاب يودع ابنه عبد الله في غيبة يغيبها ، وغربة صغيرة يغتربها ، فيقول له : « أما بعد ، فان من اتقى الله وقاه ، ومن اتكل عليه كفاه ، ومن شكر لـه زاده ، ومن أقرضه جزاه . فاجعل التقوى عمارة قلبك ، وجلاء بصرك ، فانه لا عمل لمن لا نية له ، ولا خير لمن لا خشية له ، ولا جديد لمن لا خلق له » . وهذا ابن سعيد المغربي الشاعر الأديب الكبير ، يخرج ابنه (علي) مغتربا فيودعه بقصيدة مشهورة يقول فيها :

أودعك الرحمن فـي غربتك
مرتقبا رحماه فـي أوبتـك
ومـا اختياري كان طوع النوى
لكنـني أجري على بغيتـك
فلا تطل حبل النـوى انـني
والله أشتاق الى طلعتـك !

ثم يرسل اليه في المغترب رسالة طويلة بليغة مملوءة بالنصح والاشفاق — ولكاتب هذا المقال في هذا الباب قصيدة « الطائر المهاجر » التي يودع بها ولده (نبيل) المغترب الى البرازيل . وهؤلاء الأساتذة جرجـي زيدان المؤرخ ، وخليل السكاكيني ، والدكتور محمد حسين هيكل ، واسماعيل مظهر ، وبولس سلامة ، وشكري شعشاعة ، وأحمد حافظ عوض ، والدكتور أحمد أمين ، يكتبون رسائل الى أبنائهم المغتربين في طلب العلم ، تشتهر منها رسائل : (من والد الى ولده) لأحمد حافظ عوض ، ورسائل (الى ولدي) لأحمد أمين .

وقد انتجت الغربة عند شعراء المهجر الأمريكي ألوانا طريفة ذات شجن من شعر الاغتراب ، يتجلى في شعر ندرة حداد ، وايليا أبي ماضي ، ونسيب عريضة ، وشكر الله الجـر ، والياس فرحات ، والياس قنصل ، والشاعر القروي ، وجورج صيدح ، وشفيق معلوف ، ورشيد أيوب ، ورياض معلوف ، ونعمة قازان ، وعقل الجر ، وسليم نخلة نادر .

واذا كانت الأقدار قد حكمت على هؤلاء الشعراء بالاغتراب ، فان قدرا حانيا رحيما قد كتب لبعضهم اللقاء والعودة لحين من الزمان ، فعبروا عن هذا التلاقي بأشعار رقيقة مؤثرة نجدها عند الشعراء ايليا أبي ماضي ، وجورج صيدح ، وشفيق معلوف ، والشاعـر القروي ، والياس فرحات ، والياس قنصل .

ويطول بنا المقام لو تتبعنا قصائد شعراء المهجر في الاغتراب والعودة ، ولكن يكفي أن نشير الى المجالات التي كانوا يتخذونها للتعبير عن حنينهم ، كوصف الطبيعة في أرض المهجر وأرض الوطن ، وكالحديث عن مرابعهم في الوطن وقراهم ومدنهم ، كالمرجة ، والغوطة ، وحمص ، وصنين ، ودمشق ، والقاهرة ، وذكرياتهم ومآربهم التي قضوها في أوطانهم صبيانا وشبانا . وربما أثارت بعض المناسبات الخاصة أو العامة لواعج الحنين عند شعراء العرب النازحين في المهجر ، فاذا أقيم حفل وطني أو اجتماعي أو تأبيني ، انتهز الشاعر هذه الفرصة للتعبير عن مواجده وحنينه لوطنه . واذا مست الشاعر المغترب لمسة من فرح ، أو رزىء بحادث ، ضمّن قصيدته في الموضوع كل عواطفه نحو أهله وأرضه ، كما نجد ذلك في قصيدة « فرحات » التي يرثي بها أمه حين جاءه من لبنان نعيها ، فيقول :

أماه ! ليس عـلى الغريب ملامة
بعض الذي يدهي الغريب دهـاك
حمل الذي حملت من ألم النـوى
وعنا لسيف الغربـة الفتـاك

و « الوطن » عند الشاعر المغترب هو أحب بقاع الدنيا اليه ، وألصقها بنفسه ، وأجملها في عينيه .. فناسه أكرم الناس طرا ، وشهبه أسطع الشهب ، وغيثه أكرم الغيث وأحبه ، كما يقول الشاعر ايليا أبو ماضي :

قالت : أينسى النازحـون بلادهم ؟
مـا هاج حزن القلب غير سؤالها
الأرض سوريـا أحب ربوعهـا
عندي ، ولبـنـان أعـز جبالها
والنـاس أكرمهم عليّ عشيرهـا
روحـي الفداء لرهطها ولآلهـا
والشهب أسطعها الـتي في أفقها
ليس الجمال الحقّ غـير جمالها
وأحبّ غيث ما همى فـي أرضها
حتى الحيا الباكـي على أطلالها !

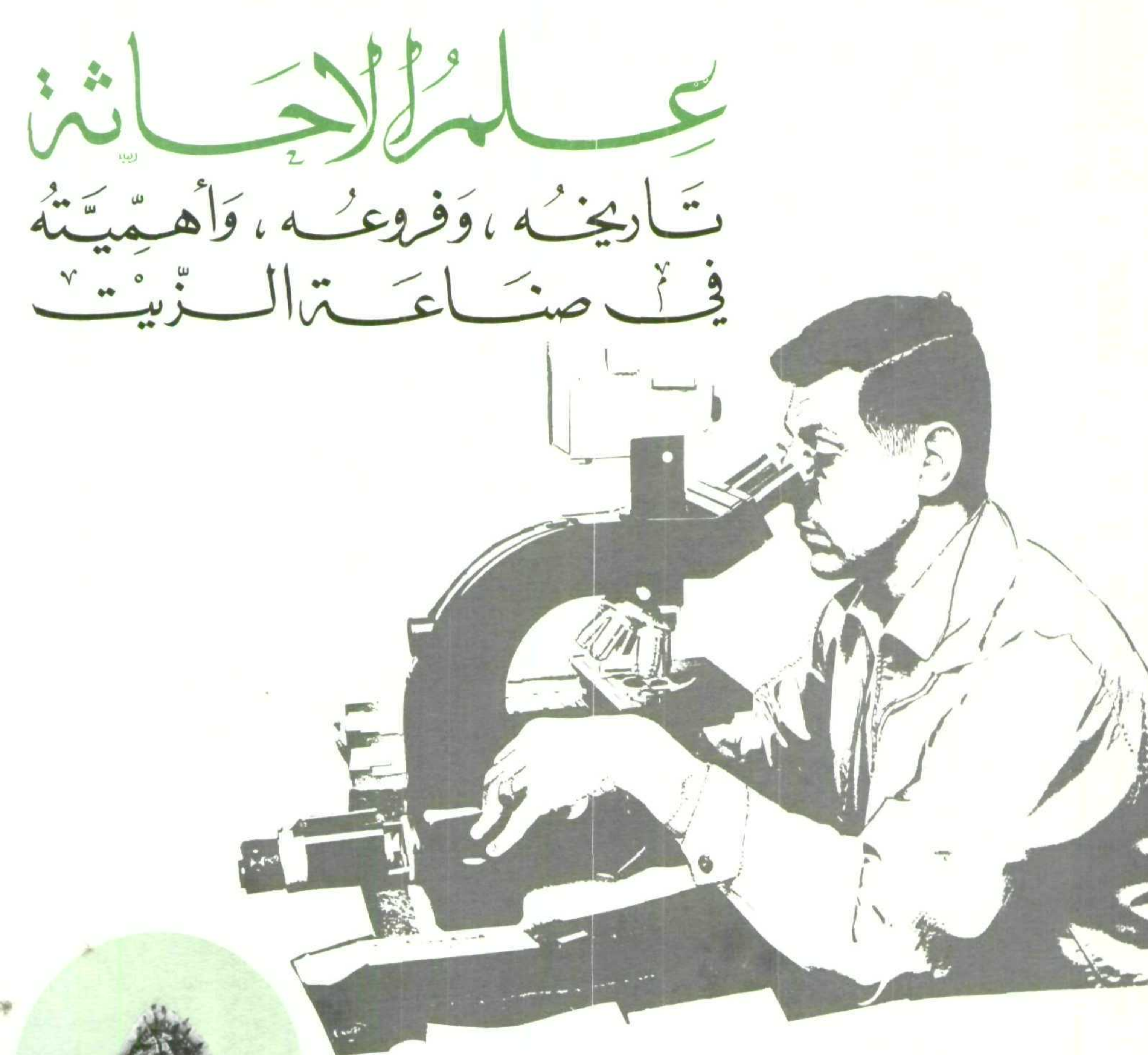
ولن يعدل ذهب الأرض كلها غير التراب الذي يضم أرض الأجداد ، وسيظل لبـنـان دائما خفقة في فؤاد الشاعر ، كما عبر عن ذلك الشاعر شفيق المعلوف :

ذهب الأرض — يعلم الله — ما يعـ
ـدلـه غـير تربـة الأجـداد
هبه مستضعف الخباب فلم يفخر
بمـاض ولا ازدهـى بـتـلاد
أو فهبـه كمـا تشاء .. فحسبـي
أن لبـنـان خفقـة فـي فـؤادي

وهكذا كان أدب الاغتراب واللقاء — وسيظل — صورة ناصعة الملامح ، شديدة الوفاء في فن القول عند العرب القدامى والمحدثين ■

عِلمُ الاحاثة

تَاريخُه ، وَفروعُه ، وَأهمّيّتُه في صناعة الزّيت



علم الاحاثة هو علم يعنى بدراسة العصور الجيولوجية السالفة التي تمثلها المستحاثات الحيوانية والنباتية . أو بعبارة أخرى هو علم دراســة المستحاثات .

والمستحاثات أو المتحجرات بقايا مواد عضوية طمرت في عصور جيولوجية غابرة بفعل الضغط والعوامل الطبيعية فتحجرت في جوف الصخور ، وأصبحت أدلة ثابتة على ألوان الحياة في تلك العصور ، وعلى التطورات الشكلية التي طرأت على الحيوانات والنباتات عبر مختلف الأجيال نتيجة لتكيفها مع متطلبات البيئة التي كانت تعيش فيها . وتتحجر في الغالب الأجزاء الصلبة من جسـم الحيوان والنبات وتبقى على هيئة مستحاثات تتفاوت في الشكل والحجم . فمنها ضخمة كأجسام « الماموث » (١) المتحجرة ، ومنها دقيقة جدا يصعب رؤيتها بالعين المجردة كالمخلوقات ذات الخلية الواحدة .

تدرس الشرائح تحت المجهر لتحديد نوعها ونوع طبقة الصخور التي وجدت فيها ، ويستعمل في دراسة المستحاثات النباتية مجهر ذو قدرة تكبير عالية مزود بآلة تصوير .

« ١ » بعض الفيلة المنقرضة

تاريخ علم الاحاثة

ان بقايا الحيوانات المتحجرة جذبت انتباه الانسان منذ أقدم العصور والأزمان . ففلاسفة اليونان والرومان مثلا تنبهوا الى وجود أصداف بحرية في الصخور التي عثر عليها في بلاد الشرق ، الأمر الذي اتخذوا منه دليلا على أن تلك البلاد كانت مغمورة بالمياه في قديم العصور والأزمان . ولكن هذه النظرية لم تتبلور نظرا لتواتر الأحداث التاريخية التي امتدت من عهد سقوط الامبراطورية الرومانية حتى نهاية القرون الوسطى . على أن هنالك نفرا من العلماء اهتموا بأمر هذه المتحجرات عبر تلك العصور وأولوها الكثير من عنايتهم . فـ « ليوناردو دافنشي » الفنان الايطالي الشهير ، عني بجمعها ودراستها ورسمها ، وناقش الكثيرين على انها حيوانات عاشت في المكان الذي وجدت فيه . وقد أثار العلماء في القرون الوسطى الكثير من الجدل حول موضوع المتحجرات ، وأصلها . فمنهم من ادّعى بأنها بقايا حيوانات كانت على وجه الأرض في عهد مضى ، ومنهم من ادّعى بأنها أملاح عادية .

وفي عام ١٧٠٦م ، تم العثور على سن « مستودون »(٢) في أحد المستنقعات قرب مدينة « ألباني » في ولاية نيويورك ، فأرسلت الى حاكم الولاية وكتب عنها « كوتن ماذر » تقريرا غريبا تضمن ما يلي : « أعتقد أن جميع جراحي المدينة قد رأوها ، وهي في نظري سن انسان . وقد قمت بقياس هذه السن ، فكان ارتفاعها حوالي ست بوصات ومحيطها ثلاث عشرة بوصة ، ووزنها حوالي كيلوغرام . » ثم أخذ يبالغ في وصف الانسان الذي تكون له مثل هذه السن . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أستاذا يدعى « جوهانز بارنجر » كان مولعا بجمع المتحجرات . فكان كثيرا ما يصطحب تلاميذه الى البراري ليجمعوا له بعضا منها . وعلى سبيل الفكاهة قام بعض التلامذة بنحت صور لبعض الحيوانات على بعض الحجارة ، وتركها هناك حتى يعثر عليها أستاذهم في الرحلة الثانية . وعندما سر الأستاذ بالعثور على هذه الحجارة المنحوتة ، استمر الطلاب بهذه الدعابة ، ناحتين من الحجارة صورا لمجموعة من الحشرات والزهور والضفادع وخلافها . وفي عام ١٧٢٦م قام هذا الأستاذ بوضع كتاب مصور عنها . لكنه عندما علم بعد فوات الأوان بما كان من شأن الطلاب وأنه كان ضحية مزاحهم ، جن جنونه وأتلف كل ما تبقى لديه من نسخ الكتاب ، بعد أن أنفق على جمع مادته وطباعته كل ما كان لديه من مال وثروة .

ان الجدل الذي أثير حول أصل المتحجرات في العصور الوسطى كان بمثابة الشمعة التي أنارت الطريق للعلماء ، فاهتم كثير منهم بدراستها والعناية بها . ومن بين هؤلاء العلماء « لويد » الذي قام مع نفر من رفاقه بجمع ما أمكن العثور عليه من المتحجرات ، ورسمها ، ووصفها ، وصياغة القصص الخيالية الكثيرة حول مصدرها . ومن بعد « لويد » ورفاقه ، ظهر في ميدان دراسة المتحجرات العالم البريطاني « روبرت هوك » الذي عاش أيضا في القرن السابع عشر واعتبر المتحجرات « مومياءات تاريخية » يمكن الاعتماد عليها في الكشف عن تاريخ العصور الجيولوجية الغابرة . على أن الدراسات الجيولوجية في القرن الثامن عشر تحولت من المتحجرات الى دراسة تركيب الصخور نفسها ، ولم يعر أحد اقتراح « هوك » أي اهتمام .

بقي الأمر كذلك حتى جاء العالم الجيولوجي البريطاني « وليم سميث » الذي تفرغ للبحث عن المستحاثات ، ونشر دراسته الجادة عنها في عام ١٨١٦ ، شارحا فيها بأسلوب علمي مركز ، وبطريقة مستفيضة مسهبة أهمية المستحاثات في التاريخ الجيولوجي . وبذلك اعتبرت ابحاثه ودراساته أساسا لمبادىء علم طبقات الصخور الجيولوجية . ومنذ ذلك الحين توسع علم الاحاثة توسعا كبيرا ، وأصبح موضع اهتمام كثير من العلماء ، وألفت فيه الكتب والمجلدات مدعمة بالرسوم والصور الايضاحية ، وأصبح علما قائما بذاته يتخصص فيه علماء الطبيعة والجيولوجيون كدراسة عليا .

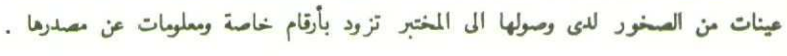
اقسام علم الاحاثة

ينقسم علم الاحاثة الى قسمين رئيسين هما : علم احاثة النبات ، وعلم احاثة الحيوان . وعن هذين القسمين تتفرع فروع واختصاصات عديدة . فعلم احاثة الحيوان مثلا ، ينقسم الى قسمين أيضا ، هما : الحيوانات الفقرية ، والحيوانات غير الفقرية . وهذه بدورها تنقسم الى فصائل ، منها ما هو كبير يمكن رؤيته بالعين المجردة ، ومنها ما هو صغير ويحتاج لدى دراسته الى استخدام المجهر . ونظرا لصعوبة الولوج في هذا العلم الواسع المتشعب فقد ارتأينا اقتصار حديثنا في هذا المقام على كيفية تطبيق علم الاحاثة في أعمال الزيت .

فوائد الاحاثة في أعمال الزيت

لعلم الاحاثة فوائد عديدة في الأعمال الجيولوجية بصورة عامة وفي أعمال الزيت بصورة خاصة . فعن طريق دراسة المستحاثات التي تحتويها الصخور يمكن تحديد أعمارها ، وذلك لأنه كما برهن علماء الاحاثة ، وفي مقدمتهم

« ٢ » حيوان منقرض يشبه الفيل .



عينات من الصخور لدى وصولها الى المختبر تزود بأرقام خاصة ومعلومات عن مصدرها .



توضع العينات في جهاز الدوران الرحوي مدة «١٥» دقيقة ، وذلك لفصل المستحاثات عن بقية المواد التي تعذر على الحوامض اذابتها .

« وليم سميث » ، الذي يعتبره المختصون « أبا علم الاحاثة الجيولوجي » ، ان عمر الصخور التي تحتوي على مستحاثات يساوي عمر أصغر هذه المستحاثات سنا . كما يساعد علم الاحاثة الى حد كبير في معرفة تركيب طبقات الصخور في المناطق المجهولة ، وفي تحديد معاصرة التكوينات الصخرية في مختلف مناطق الامتياز . وهذه الفوائد مجتمعة تساعد الجيولوجيين أثناء الحفر على تحديد العمق الذي ينبغي انزال المثقب اليه أثناء حفر الآبار التجريبية . ولتوضيح هذه النقطة نسوق المثال التالي :

لنفرض انه يتوقع وجود الزيت في احدى مناطق التكوين الجوفية التي أطلق عليها الجيولوجيون اسم « المنطقة العربية » ، فالحفار لا يستطيع معرفة ما اذا كان قد وصل الى هذا التكوين الجوفي الا عن طريق « الاحاثة المجهرية » ، وكذلك على ضوء التقرير الذي يرفعه خبير الاحاثة ، والذي يبين فيه عثوره على المتحجرات التي تؤكد بلوغ المثقب طبقات التكوين الجوفية المطلوبة .

ويمكن عن طريق الاحاثة أيضا تقسيم التكوين الواحد الى عدة أجزاء يطلق عليها أرقام مميزة ، فيقال طبقة « وسيع — ١ » ، و « وسيع — ٢ » وهكذا .

الاحاثة والتكوينات الجوفية

عندما بدأ جيولوجيو أرامكو بالتنقيب عن الزيت في المملكة العربية السعودية ، قاموا باجراء مسح جيولوجي عام لمنطقة الامتياز قدروا فيه أعمار الصخور الظاهرة ، والعصور الجيولوجية التي تنتمي اليها . وقد اعتمدوا في تحديد أعمار الصخور هذه على المستحاثات الكبيرة الموجودة فيها ، والتي ترى بسهولة بالعين المجردة . اما أثناء عمليات الحفر ، فان معظم المستحاثات الكبيرة التي يخترقها المثقب تتكسر الى أجزاء دقيقة يصعب معها معرفة شكلها الخارجي وصفاتها التحديدية ، لذا يعتمد في دراسة العينات التي تؤخذ من جوف الآبار على المستحاثات المجهرية ذات الخلية الواحدة ، الحيوانية منها والنباتية ، التي يعثر عليها داخل تلك العينات .

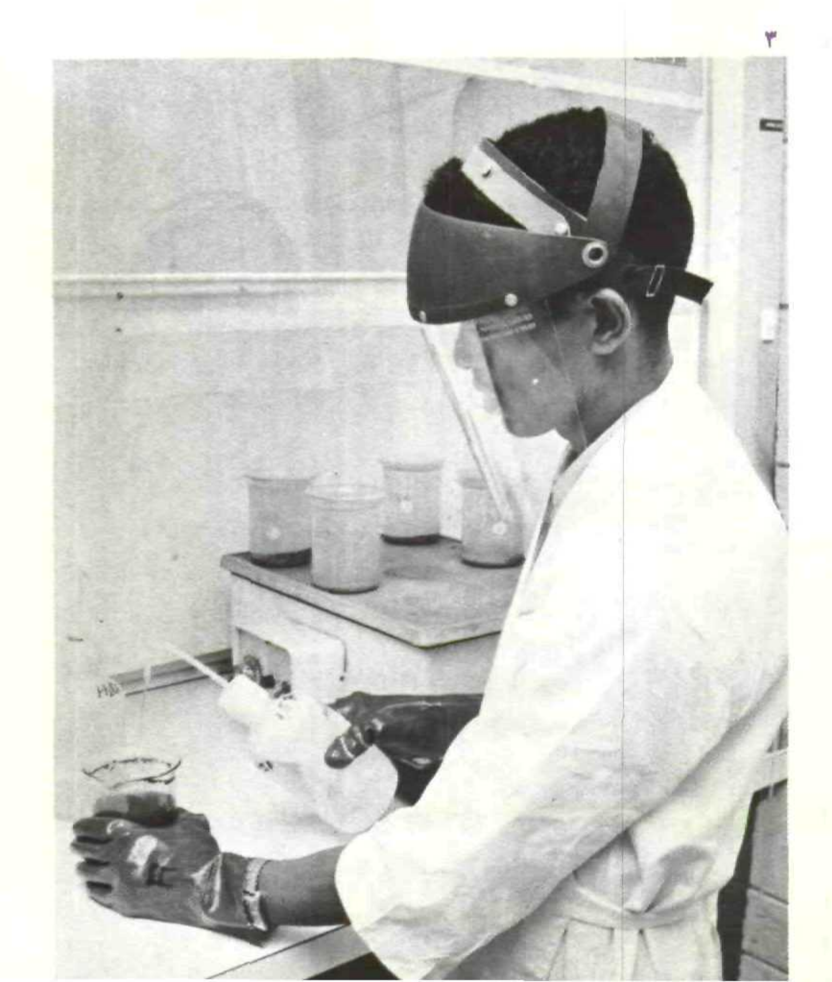
ان القشرة الخارجية التي تكسو المخلوقات المجهرية قد تعرضت خلال الأجيال المتعاقبة من عمر الأرض ، لتطورات شكلية فرضتها عليها عوامل التكيف مع البيئة . كما أن بعض هذه المخلوقات عاشت في فترة جيولوجية معينة من عمر الأرض ثم انقرضت لتظهر مكانها مخلوقات مجهرية أخرى تختلف عن الأولى في الشكل . ففي عينات الصخور التي ترد الى المختبرات ، تظهر أنواع عديدة من المستحاثات في أكثر من طبقة واحدة من الصخور ، ولكن الأنواع التي تستأثر باهتمام خبراء الاحاثة هي تلك المستحاثات الجديدة ، أو المغايرة التي تظهر لدى وصول المثقب الى طبقة جديدة من التكوينات الجوفية ، فتكون بمثابة دليل يرشده الى تحديد اسم هذه التكوينات وعمرها .

في شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) مختبران لدراسة المستحاثات المجهرية ، أحدهما

١

٢

٣

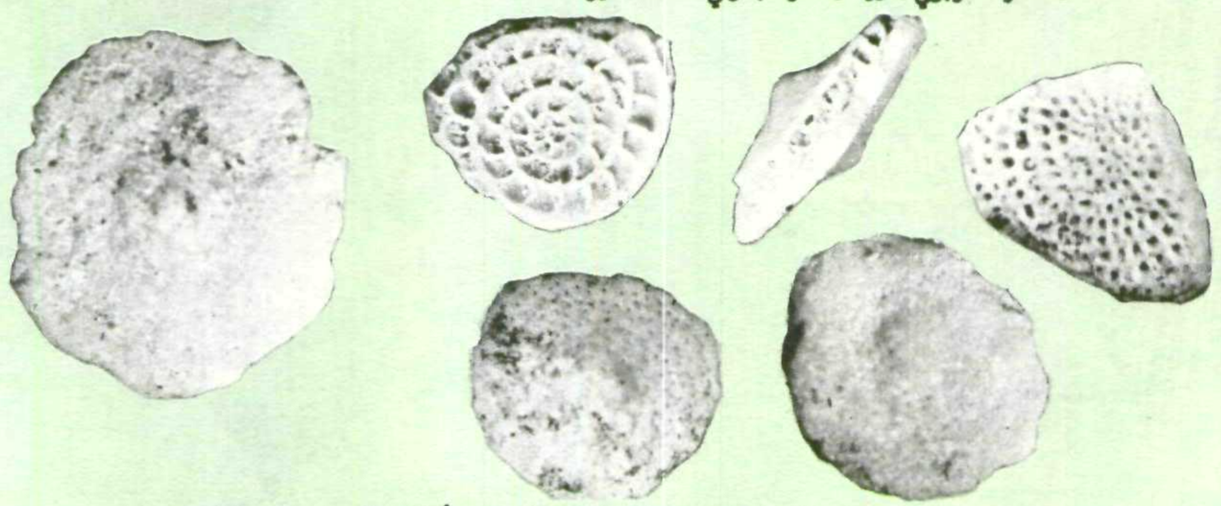


١ – مستحاثات ذرات لقاح « نباتية » مكبرة ٦٠٠ مرة ، ويقدر عمرها بنحو ١٧٠ مليون سنة .

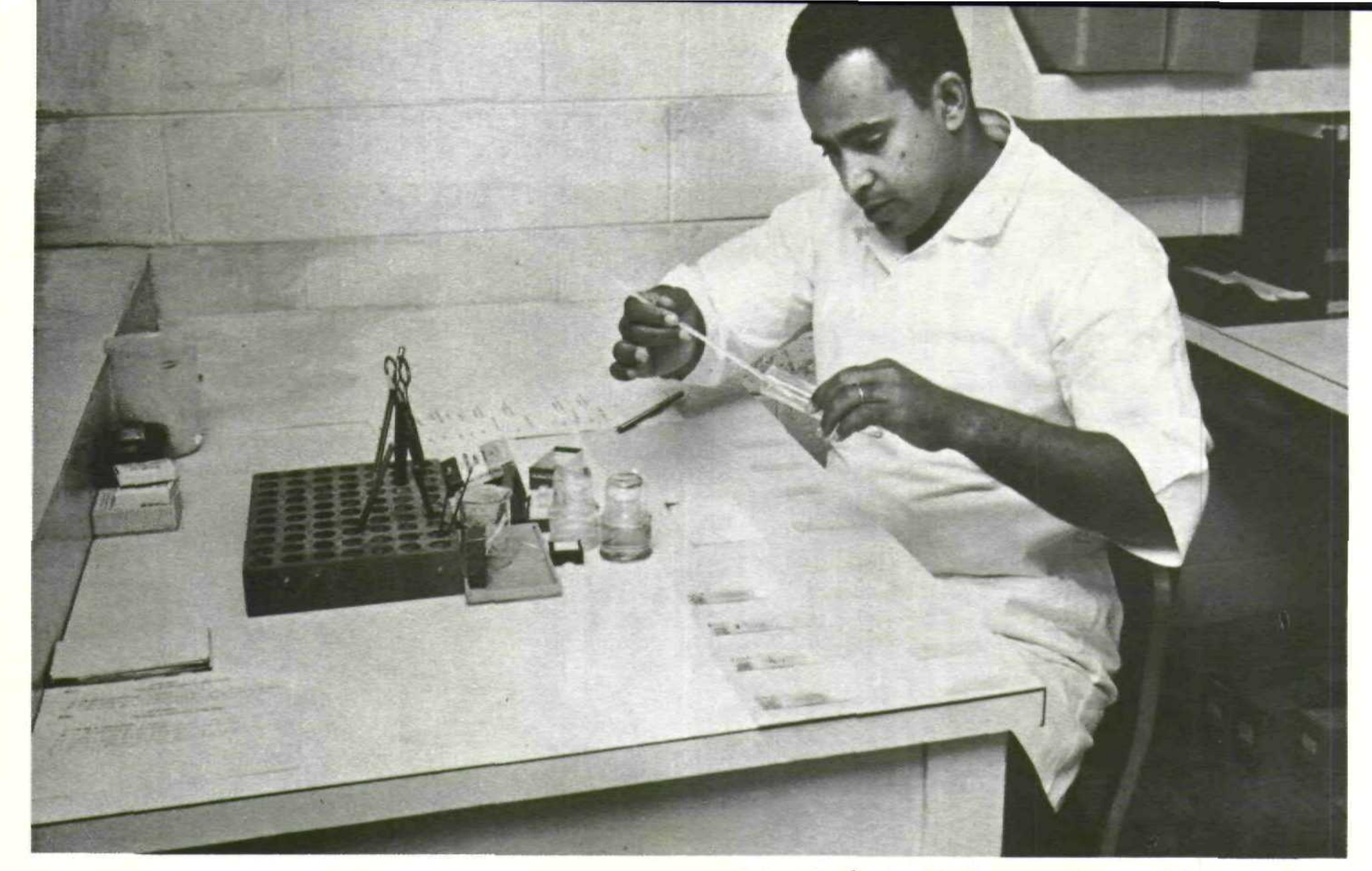
٢ – مستحاثات حيوانية تبلغ من العمر حوالي ١٠٠ مليون سنة وقد عثر عليها في الربع الخالي في طبقة الصخور الجوفية المعروفة لدى جيولوجيي ارامكو باسم « الارومة العليا » .

٣ – تغسل العينات بعد سحنها بعدة انواع من الحوامض ، وذلك لاذابة البقايا الصخرية عن المستحاثات .

مستحاثات أبواغ نباتية جرى تكبيرها الى نحو ٦٠٠ مرة ، وهي تعود الى سن جيولوجية واحدة تعرف باسم « العصر الكربوني » ويقدر عمرها بحوالي ثلاثمائة مليون سنة .



مستحاثات حيوانية عثر عليها في طبقة الصخور الجوفية المعروفة باسم « أم الرضومة » ، ويقدر العلماء عمرها بحوالي ٧٠ مليون سنة .



تثبت العينات على شرائح مجهرية ، ويستعمل لذلك مادة كحولية خاصة .

لدراسة اللقاح والأبواغ النباتية ، والآخر لدراسة المخلوقات المجهرية الحيوانية . ويعثر على المستحاثات النباتية عادة في صخور السجيل السوداء ، بينما يعثر على المتحجرات الحيوانية في الصخور الكلسية . فالقائمون على أعمال الحفر هم الذين يقررون الى أي المختبرين ينبغي ارسال العينات لفحصها وتحليل مواصفاتها ، وذلك حسب نوع الصخور التي يخترقها المثقب . وقد ترسل العينات المتشابهة في بعض الأحيان الى كلا المختبرين . على أن لكل مختبر طريقته الخاصة في تحليل العينة التي تصل اليه وفحصها .

مختبر المستحاثات النباتية المجهرية

معظم العينات الجوفية التي تصل الى هذا المختبر هي من صخور السجيل السوداء اذ يؤخذ من كل منها عينة تزن حوالي مائة غرام ، وتجري معالجتها بالأحماض المختلفة للحصول في النهاية على المستحاثات غير القابلة للذوبان . وتعالج هذه العينات عادة بحامض الهيدروكلوريك ، ثم بحامض الهيدروفلوريك ، لاذابة المواد السليكونية . ومن ثم تعالج بحامض النيتريك لتفكيك ذرات المواد العضوية . وبعد ذلك توضع العينة في جهاز الدوران الرحوي مدة ١٥ دقيقة لازالة الأملاح الثقيلة منها . وهكذا نخرج في النهاية بعينة من المستحاثات ، وزنها غرام واحد ، يجري تثبيتها على شريحة مجهرية ، لتدرس بعناية تحت المجهر بحثا عن المعلومات التحديدية المعينة . وبعد العثور على المستحاثات المطلوبة ، يجري تصويرها من خلال المجهر ، ثم تحفظ الصور ومعلومات وافية عنها ، وعن الفحوص والتحاليل التي تعرضت لها في بطاقة خاصة للرجوع اليها عند الحاجة . وفي الوقت نفسه يرفع تقرير عن نتائج الفحوص والتحاليل الى مختلف أقسام ادارة الحفر للاطلاع عليها والنظر فيها .

مختبر المستحاثات الحيوانية المجهرية

وفيه تختلف مراحل فحص العينات وتحليلها عن المراحل المتبعة لدى سابقه ، اذ لا تستخدم فيه الأحماض في اذابة الصخور عن المستحاثات ، كما هو الأمر في مختبر المستحاثات النباتية ، وانما يتم ذلك بسحن العينات ، لتصبح مسحوقا دقيقا جدا يمر عبر فتحات منخل خاص . وفي الوقت نفسه تبقى معظم المستحاثات فوق المنخل سليمة من التحطيم مع بعض المواد القاسية الأخرى. فتجمع المواد المتبقية وتغسل جيدا وتجفف ، ثم يشرع أخصائي الأحاثة بانتقاء المستحاثات السليمة المطلوبة منها ، مستخدماً في ذلك مجهراً وفرشاة صغيرة خاصة . وبعد حصوله عليها ، يبدأ بدراسة المستحاثات بدقة تحت المجهر باحثاً عن الانواع الكفيلة بتزويد رجال الحفر بمعلومات وافية عن نوع الطبقة الصخرية التي بلغها مثقب الحفر ، ومدى العمق الذي ينبغي الوصول اليه أثناء الحفر كي يتسنى بلوغ الطبقة التي يحتمل وجود الزيت فيها .

ان المستحاثات المجهرية ليست الا وثائق تاريخية مدفونة في صخور الأرض تميط اللثام عن الكثير من المعلومات الجيولوجية والعلمية والتاريخية ، التي يوالي الانسان البحث والتنقيب عنها . وهي بالنسبة لصناعة الزيت لا تقل في أهميتها عن مثاقب الحفر ، والرافعات ، والآليات الضخمة وغيرها ■

ع.ع.



أحمد حسن الزيات
صاحب مدرسة «الرسالة»

للدكتور جمال الدين الرمادي

فقدت الأمة العربية عشية ١٧ ربيع الأول ١٣٨٨ الموافق ١٣ يونيه ١٩٦٨ أديبا عظيما، وعلما خفاقا من أعلام الأدب العربي وصاحب مدرسة أدبية كبرى هي مدرسة "الرسالة" ألا وهو الاديب الكبير أحمد حسن الزيات.

ولد في مدينة المنصورة عام ١٨٨٥ وأغرم بمناظرها الطبيعية الفاتنة وأنفق زهرة شبابه وريعان عمره في مرابعها ومغانيها . ثم رحل الى القاهرة ، حيث التحق بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة والأدب . بيد أن موهبته الفذة وسليقته الحساسة لتذوق فنون الأدب جعلته يزهد في نظم التعليم المرعية في الأزهر آنذاك ، ويتوق الى العكوف بمفرده على كنوز الأدب العربي القديم للانتهال من موارده العذبة والارتواء من مصادره الأولى.

وحمل الزيات مع طه حسين لواء التجديد في الأزهر ، ومضى يدبج ببراعته المقالة تلو المقالة في سبيل الدعوة الى التطور ، ودراسة الأدب العربي دراسة منهجية منظمة ، والاطلاع على روائع الأدب الغربي ، والتمسك بأهداب المدنية الحديثة في حياتنا العلمية دون اهدار تراثنا الاسلامي العظيم .

وقد بدأ أحمد حسن الزيات حياته العلمية مدرسا عام ١٩١٧ . وكان قبل ذلك يساهم في تحرير كثير من المجلات والصحف الأدبية الكبرى مثل « الجريدة » التي كان يصدرها أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد ، ومجلة « مصر الفتاة » التي كان ينشر فيها بعض الأبحاث الأدبية مع الدكتور طه حسين . وعندما صدرت مجلة « السياسة » الاسبوعية لم يضن بقلمه السيال على صفحاتها .

وفي عام ١٩٣٣ أصدر الأديب الراحل مجلة « الرسالة » وكانت من كبريات المدارس الأدبية التي كان لها أثر فعال في نمو الحياة الفكرية في المشرق العربي ، وفتح نوافذ جديدة أمام الأدباء والمتأدبين للاطلاع على الأدب الغربي والتيارات الأدبية المعاصرة ، كما كانت مصدرا من مصادر اليقظة الوطنية .

وقد قام الزيات بكثير من الأعمال الأدبية الرائعة ، من بينها ترجمته لقصة

الأديب الالماني «جيته» «آلام فرتر» وقد كتب في سبب الاقبال على ترجمتها : «في عام ١٩١٩ كنت أجتاز في هذا الحين وأنا شاب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ، ونمط التربية وطبيعة المجتمع ، في دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده واحساس مشبوب بتوقد الجمال ، وقلب غريب يتحرق ظمأ الى الحب . فالطبيعة في خيالي شعر ، وحركات الدهر نغم ، وقواعد الحياة فلسفة » ، الى أن يقول : «فلما قرأت «آلام فرتر» سمعت نواحا غير هذا النواح ، ورأيت روحا غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالا غير تلك الحال . كنت أقرأ ولا أرى في الحادثة سواي ، وأشعر فلا أشعر الا بهواي ، وأندب ولا أندب الا بلواي » .

وقد صور جيته في هذه القصة العالمية الواقعية عواطف الشباب في وقت نزوعه الى الحب ، وولوعه بالجمال ، واتحاده مع الطبيعة ، وقد قال عنها لصديقه (اكيرمان) : «وكل امرىء يأتي عليه حين من دهره يظن فيه أن «آلام فرتر» انما كتبت له خاصة » .

وترجمة هذه القصة الى العربية تتفق مع أصلها في قوة الأسلوب وصدقه ودقته وأناقته وجماله ، وهي مثال الترجمة الأمينة التي تنقل الصورة والفكرة وما يقوم بهما من الروح والخيال والعاطفة .

كما ترجم أحمد حسن الزيات قصة «رفائيل وجوليا» وهي احدى روائع القصص العالمي الواقعي لشاعر فرنسا «لا مارتين» وقص فيها بأسلوبه الشعري الرشيق تاريخ فترة من شبابه تدفق فيها حسه بالجمال وفاض بها شعوره بالحب ، وهي «كآلام فرتر» في دقة الترجمة وقوة الأسلوب .

وقد صور وجوه الشبه بين بطلي القصة في قوله على لسان البطل : «وجدت في حظها مشابه حظي ، فكلانا طريد هم ، ووحيد غربة ، وكلانا نضو سقام ، وهي مثلي تتجنب الضوضاء ، وتتقي عيون الناس » .

والواقع ان الزيات قد أبدع في نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ، وظهرت فيه براعة الأسلوب بشكل واضح ، وفي صورة ناطقة لا تحتاج الى دليل ، ولا يعوزها البرهان . وجعلنا نعيش في أجواء القصة بكل مشاعرنا وأحاسيسنا ، حتى لتخال الطبيعة جزءا من النفس ، والنفس جزءا من الطبيعة .

ونقلنا الزيات الى تلك البحيرة الهادئة الوادعة التي تغنى العاشقان على ضفافها أحلى نغمات الهوى ، كما ترجم في الصفحات الأخيرة من الكتاب قصيدة «البحيرة» للشاعر الفرنسي «ألفونس لا مارتين» وقصيدة «الوحدة» ، وهما من أروع القصائد الرومانتيكية في تاريخ الأدب الفرنسي .

وقد قامت محاولات كثيرة لترجمة قصيدة «البحيرة» المذكورة شعرا ، فنظمها شاعر الجندول علي محمود طه . كما نظمها من قبل الدكتور نيقولا فياض ، ونشرها في مجلة الزهور التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ انطون الجميل في مطلع هذا القرن ، كما ترجمت عدة ترجمات جديدة الى الأدب العربي . بيد أن ترجمة الزيات تجل على هذه الترجمات جميعا لما امتازت به من أسلوب جميل ، وبيان رائع ، وعبارة أنيقة طليقة تبعث في النفس رقة وانجذابا ، وفي القلب روعة واختلابا .

ومن روائع انتاج اديبنا الراحل كتاب آخر اسمه «في أصول الأدب» وهو يتميز بالبحث العميق ، والتحليل الدقيق ، والرأي المبتكر . ومن موضوعاته الأدب ، وحظ العرب من تاريخه ، والعوامل المؤثرة فيه ، والنقد عند العرب ، وأسباب ضعفهم فيه ، وأثر الثقافة العربية في العلم والعالم ، والرواية المسرحية والملحمة وتاريخهما وقواعدهما وأقسامهما وكل ما يتصل بهما .

وقد كان مصدرا من مصادر الدراسة الأدبية في مدارسنا ، ونواة للكثير من البحوث التي تقدم بها الجامعيون ، كما كان فتحا جديدا في دراسة الأدب العربي القديم على أصول قويمة ، وقواعد سليمة ، ومنهج واضح مبين ، مع العناية بآراء المستشرقين وعرضها ونقدها .

وله كتاب آخر هو كتاب «تاريخ الأدب العربي» وهو كتاب يؤرخ الأدب العربي خلال الفترة الممتدة من عصر الجاهلية الى العصر الحالي بأسلوب رصين ممتع ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى . وقد بذل الزيات في اعداده جهدا كبيرا في عرض حالة الأدب العربي في عصوره المختلفة والترجمة لاعلامه في الشعر والنثر . ورجع الى عشرات الكتب ، والمؤلفات القديمة ، ودواوين الشعراء ، لتحليل أدبهم ، والاستشهاد بشعرهم ، حتى ظهر الكتاب في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع المتوسط .

ومن مؤلفاته أيضا «دفاع عن البلاغة» يعرض فيه قضية البلاغة العربية أجمل عرض ويدافع عنها أبلغ دفاع ، ويذكر أسباب التنكر للبلاغة والعلاقة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة الخ . ومن فصوله المبتكرة الذوق والأسلوب والمذهب الكتابي المعاصر ، وزعماؤه واتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزية ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك . ويتضح في هذا الكتاب حرص الزيات على اللغة العربية الصحيحة والدفاع عن الأدب العربي العظيم ، كما يدعو الى التمسك بأهداب لغة القرآن الكريم حفظا لهذا الكتاب الخالد المبين ، وصيانة لتراثنا الأدبي الدفين .

وقد نبه الزيات الأذهان الى أبواب جديدة ، وميادين فسيحة في النقد الأدبي بما كتبه من فصول ممتعة عن الذوق والأسلوب ، مما مهد الى ظهور المدارس النقدية في الأدب الحديث .

وللزيات كتاب آخر بعنوان «من الأدب الفرنسي قصائد وأقاصيص » ، وهو مجموعة من أروع القصص القصيرة ، وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها . ولا يستطيع ناقد أن ينكر فضل هذا المؤلف في وضع نماذج رفيعة من القصص الأوروبي القصير أمام الناشئة من كتاب القصة . وقد زاد رصيدهم من هذه النماذج عندما أخرج مجلة «الرواية» فنشر فيها روائع القصص القصير والأدب الأوروبي الحديث .

وبالاضافة الى ذلك ترجم قصائد في توضيح الرومانتيكية في الأدب الفرنسي وغيرها من المدارس الأدبية .

وللزيات كتاب ضخم يقع في عدة أجزاء

بعنوان « وحي الرسالة » ، وهو فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع شهدت النور على صفحات الرسالة الغراء التي لم تلبث ان احتجبت في مطلع عام ١٩٥٢ بعد عشرين سنة من الجهاد الأدبي المثمر والكفاح العلمي المتصل . وهذه الفصول مغمورة بألوان مختلفة من الفكر النير ، وبفيض من الاحساس المتدفق والشعور المتألق والحماسة الهادرة .

النقد

كانت مقالات الزيات وآراؤه في الأدب نبراسا وهاجا للأدباء والمتأدبين في العالم العربي ، وكان ينصح الناشئة من الأدباء بقوله : « أدرس لغتك حق الدرس ، واتقن بجانبها الانجليزية أو الفرنسية ، ثم اقرأ فيهما أدب الناس في القديم والحديث ، ثم اختر لنفسك من كل أدب صفوة أقطابه ، فتعمق في أدبهم ، وسر في طريقك على ضوئهم ، ثم اطلع وابحث وفكر وتأمل ، ولاحظ وسجل . ثم اذا امتلأ ذهنك ، وبلغ حد الفيض فاكتب . لا تمد في طريقك الأدبي سكة من الحديد تسير على قضبانها كما يسير القطار ، فلا يخرج عنها الا لينقلب ، نزّه قلمك عن الرمزية ، والوجودية ، والسيريالية ، ثم تقلب في الاتجاهات الأدبية الأخرى كيف تشاء . خذ من كل اتجاه خير ما فيه ، ثم غص في أعماق نفسك فاعرفها ، تعرف الناس ، وحلّق في آفاق الطبيعة فادرسها ، تدرس الحياة ، فالنفس والمجتمع والطبيعة هي المجالات الحيوية للأدب الحق . ومن اليسير الفصل بينها فتجعل الأدب تارة موضوعيا كالاتباعيين ، وتارة ذاتيا كالابتداعيين ، فان الفن كما قال « اميل زولا » هو الطبيعة يراها الفنان من خلال مزاجه » .

وقد كان للزيات رأي جليل في الشعر العربي الذي يجري على عمود الشعر القديم والشعر الحر ، وكان يرى أن للشعر العربي بمعناه الفني خصيصتين تميز بهما على الشعر كله ، احداهما القافية الواحدة للقصيدة مهما تطل ، والأخرى بناء كل بيت من القصيدة على مدة التفاعيل في بناء البيت الأول ، فتكون القصيدة كلها كاملة أو مشطورة ، وللقافية سلطان طبيعي قوي على النفس العربية لأنها تجمع التلاؤم الصوتي للسمع والتلاؤم الحرفي للبصر ، ولذلك لازمت الشعر العربي في طوره البدائي وهو طور السجع ، وفي طوره الراقي وهو طور الرجز ، وفي طوره الأرقى وهو طور القصيد . والكلمة الصادقة الموسيقية لا تجدها في غير الشعر الموزون المقفّى .

كما كان الزيات يرى أن الشعر الحر يعجز عن أن يهيىء للذاكرة ، في التمثيل على الأخص ، ما تهيئه له القافية من نقط الارتكاز وعلامات الطريق حتى لا تجور ولا تضل ، على أن تسهيل بالغاء القافية في الشعر المرسل ، والغائها مع الوزن في الشعر الحر يخمد الذهن ، ويجدب القريحة لأن الصعوبة ترهف الفكر فيدق احساسه ، وتوقظ العقل فيزيد انتاجه ، وتبعث الفن فيحيا بين آلام الشاعر واعجاب القارىء .

فالشعر

في نظر الزيات مصدره الغناء في كل أمة . وكما أن الغناء لحن وايقاع ، فان الشعر وزن وقافية . فاذا جردنا شعرنا من موسيقاه الموروثة تركناه نوعا من الكلام لا هو نظم ولا نثر ، ومحاولة اقحامه على العروض العربي تزييف على الطبع وتحامل على الذوق .

ولا شك أن رأي الزيات في الشعر الحديث ينبع من حرصه على الأدب العربي القديم ، وثقافته الاصيلة ، وغيرته على كنوز الشعر العربي التي توارثها الأبناء عن الآباء ، والآباء عن الأجداد ، وهيهات أن تدركها يد البلى أو تعبث بها أيدي الزمان .

والزيات يرى أنه لم يبق من تراث « أبولو » الا الشعر الغنائي ، وهو فيض الوجدان ، وعبير الروح ، وأحلام النفس ، وأنغام القلب ، وحداء البشرية المسرفة في طريق الحياة الوعر ، صفا من شوائب المدح الكاذب ، والهجاء الفاحش ، والغزل الشاذ ، ثم خلص للتأملات والوجدانيات والأغاني والأناشيد التي هي سر وجوده وبقائه .

ولا يزال الأوروبيون يقولون ، كما كان يقول الاغريق والرومان : « أنشد الشاعر شعره أو غنّاه ، ولا يقولون ألقاه أو أداه . »

وقد تحدثت الى الأديب الراحل أحمد حسن الزيات قبل وفاته بفترة وجيزة ، فقال لي : « انني في كهولتي كشبابي لولا ما أعانيه من أمراض الشيخوخة ، مثل الضعف العام أو نحو ذلك ، ولكني من الناحية العقلية ولله الحمد أشعر بما كنت أشعر به وأنا في العشرين من عمري ، وليس هناك أي تأثير على جهازي العصبي ، أرجو من الله القوة والستر . » وأضاف قائلا :

« أنا راض كل الرضا عن انتاجي الأدبي ، وقد ظللت سنوات طوالا وأنا أجاهد في هذا الميدان ، ولا أزال حتى اليوم أحمل قلمي كما يحمل الجندي سيفه أو بندقيته ، وقد عملت في شتى ميادين التربية والتعليم والثقافة العامة ، وساهمت في نهضة الصحافة الأدبية في الشرق العربي عندما أصدرت مجلة « الرسالة » التي كنت أرأس تحريرها وكان يشترك في تحريرها نخبة ممتازة من أقطاب الفكر والأدب والعلم . وقد ظلت الرسالة تحمل مشعل الثقافة الوهاج حتى كتب لها أن تتوقف عن الصدور ، وبعد اغلاق الرسالة زهدت في الكتابة لأني شعرت انني لم أقصر ذات يوم في حق الأدب أو الأديب ، فقضيت فترة استجمام ، استأنفت بعدها الكتابة في الصفحة الأدبية في جريدة « الشعب » ، ثم أشرفت على تحرير مجلة « الأزهر » وساهمت في تحريرها واختيار المقالات التي تنشر فيها . »

وعندما سألت الأديب الراحل عن مشروعاته الثقافية أجاب قائلا : « لدي مشروعات كثيرة في مجلة « الأزهر » أرغب في الفراغ منها ، كما اني أكتب الآن كتابين الأول عن « عبقرية الاسلام » أتناول فيه الروح الجمالية والفلسفية والقلبية في الاسلام . » أما الكتاب الثاني فهو بعنوان « ذكرى عهود » وهو عن ذكرياتي الخاصة ، وعن دراستي وتعليمي ، وجهادي في ميدان الفكر العربي . ولكن القدر لم يمهله فاخترمته يد المنون قبل أن يتم هذين الكتابين .

ولعل خير ما نختتم به هذا المقال ذلك الرد الجميل الذي أجاب به الراحل عن سؤالي له : ما أمنيتك التي تريد أن تحققها يا أستاذنا الجليل ؟ فقال : « أمنيتي الكبرى أن ألقى ربي وهو راض عني » ■



ظلّ الهوى

للشاعر عبد الغني قني

أبى الليل الا أن يبارك لقيانا ... ويصغي لنجوانا ورقة شكوانا
ودب رسيس الحب بين جوانحي ... وضج بها حتى تعانق روحانا
وظل شعاع البدر يرقص حولنا ... وباتت عيون الأنجم الزهر ترعانا
وصافحت البشرى (اميمة) مذ بدت ... بطلعتها الغراء تشرق دنيانا
فقدمت قلبي للجمال ضحية ... وقربت روحي للصبابة قربانا

وآثرت هذا الحب يفري حشاشتي ... ويرهف احساسي ، ويصليه نيرانا
ويسمو بوجداني ويوري عزيمتي ... ويوحي الي الشعر أبلج فتانا
ويدفعني للمكرمات عزيزة ... مخلدة الآثار شكرا وعرفانا
ويلهمني الالحان نشوى تهزني ... وتملأ أجواء الخلود بذكرانا
ويمسح آلامي فتقوى عقيدتي ... ويمحو تباريحي فأزداد ايمانا
ويحنو على نفسي فأشعر بالرضا ... يمس شغاف القلب شوقا وتحنانا
وأرضى به في الحالتين مواسيا ... يزودني من فيض نعماه ألحانا

وما الشعر الا نغمة وترنم ... وفيض من الاحساس والحب مذ كانا
وهذا الجمال الفذ أعذب منهل ... تدفق منه الشعر روحا وريحانا
فان شئت أن تصلى بحرّ لهيبه ... تفجر كالبركان صدا وهجرانا
وحسبي من الحالين اني منعّم ... بظل الهوى العذري أمرح جذلانا



إسمُ العرب
جذوره اللغوية والتاريخية

بقلم الاستاذ السيد احمد ابو الفضل

يرى بعض المستشرقين مثل « د.ه.موللر » (D. H. Muller) أنه لا يمكن الجزم بتعيين الوقت الذي استعمل فيه لفظ «العرب» اسما لهذه الأمة يميزها عن غيرها من الأمم لعدم وجود نصوص مدونة تبين بجلاء أن العرب، حضرهم وبدوهم ، كانوا يسمون أنفسهم عربا .

والنص الوحيد الذي لا يمكن الشك في صحته هو القرآن الكريم ، فهو في نظر هؤلاء المستشرقين أول نص عربي ، لا تتطاول اليه الظنون والشكوك ، يستعمل كلمة العرب على هذا الجنس من الناس . ويرون من أجل ذلك أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هو أول من خصص هذه الكلمة بعد عمومها لأنها كانت في نظرهم تطلق على كل من سكن البادية ، فجُعلت علما لقومية سكان شبه الجزيرة العربية . وهم يشكون في صحة ما ورد فيه لفظ «العرب» علما على هذه القومية في الشعر الجاهلي وفي الأخبار المروية ، ولكن هذا الرأي ضعيف يبدو عليه طابع سوء الاستدلال وفساد المنطق ، اذ كيف تعقل مخاطبة القرآن الكريم قوما باسم يطلقه عليهم وهم لا يعرفون هذا الاسم علَماً لهم ولم يكن لهم به سابق علم، وما الداعي الى اطلاق التشكك في كل ما روي عن الجاهلية بحجة أن شيئا من ذلك لم يصل الينا عن طريق التسجيل والتدوين . وليس عدم التدوين مقتضيا لعدم ما يمكن تدوينه ، بل تدوين ما يناقض وجود الشيء هو الموجب لعدمه . وكيف ينتظر منهم تدوين ولم يكن عندهم شيء من أدوات التسجيل والتدوين منذ عهود سحيقة القدم . وانما كان الوصف الغالب عليهم في الجاهلية القريبة من الاسلام هو الأمية ، ومخاطبة القرآن لهم بهذا الاسم من أرجح الشواهد على أنه كان معروفا لهم ومقررا عندهم .

بقي أن ننظر هل هناك أدلة أخرى تؤيد ذلك وتعضده :

أقرب النصوص المدونة عهدا بالجاهلية – مما ورد فيه هذا الاسم – هو نقش « النمارة » الذي كشف في مدفن أمرىء القيس بن عمرو ، وتاريخ تدوينه سنة ٣٢٨م . والنمارة كانت قطرا صغيرا للروم في الحرّة الشرقية (الحرّة: هي الأرض السوداء) من جبل الدروز ، وكان امرؤ القيس هذا من ملوك الحيرة، وانتشر نفوذه في باديةالشام .. وجاء في هذا النقش ما نصه : « تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج وملك الأسدين ونزرو وملوكهم » (١) .

والمعنى : « هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي بسط نفوذه على بني أسد وبني نزار » .

فهذا النص مسجل قبل الاسلام بنحو ثلاثة قرون ، ويظهر منه اطلاق لفظ « العرب » على هذا الجنس من سكان الجزيرة العربية جميعا ، بمعنى أن امرأ القيس كان أعظم ملك عربي خضعت له جميع ملوك العرب الذين كانت لهم ممالك قريبة منه في شمالي الجزيرة العربية ، وان لم يلزم من ذلك أنه بسط نفوذه على جميع بقاع الجزيرة وسكانها ، ولكن بعض المستشرقين ومن جاراهم تقيد بالواقع التاريخي ، فحدد لفظ العرب في هذا النص بسكان المناطق التي حكمها امرؤ القيس المذكور ، وأخرج بقية سكان الجزيرة العربية من هذه التسمية .

وبناء على ذلك فسر لفظ العرب بالأعراب الرحل أي البدو ، ولكن هذا الاستنتاج ضعيف في مقام يفخر فيه الملك أو من مجد ذكره بسعة الملك وامتداد السلطان ، وعلى ذلك فهذا النقش ينظر الى العرب على أنهم أمة واحدة وجنس معين .

وهناك كتابات عربية يمنية أقدم من هذا النص تؤيد ما ذكرناه ، وتطلق لفظ العرب على تلك القومية الخاصة التي تشمل أهل الوبر أي البدو ، والمدر أي الحضر .. وجميع سكان شبه الجزيرة العربية ، وان كان اللفظ الوارد في تلك النصوص هو لفظ « أعرب » ، والظاهر أن أصله أعراب جمع عرب ، الا أن الكتابة اليمنية لم تكتب الألف لأنها كانت تسقطها كثيرا .

ومن مثل هذه النصوص ما ورد في « نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب » بقلم الدكتور خليل نامي حيث يقول : « وأعرب ملك حضرموت ، وأعرب ملك سبأ » .

كما ورد مثل ذلك في نص أبرهة نائب ملك الحبشة على اليمن (أنظر دائرة معارف الكتاب المقدس) .

وجاء ذكر العرب في آداب اليونان القدماء، وأول من ذكرهم بهذا الاسم اخلوس (Aeshylus) (٥٢٥ – ٤٥٦ ق.م) عند الاشارة الى ضابط عربي اشتهر في جيش أحشويرش (Xerzes) ، ولكن هذا الكاتب لم يكن يعرف شيئا عن بلاد العرب ، فتصور أن شبه الجزيرة العربية قريبة من القفقاس (القوقاز)

ثم تلاه هيرودتس (٤٨٤ – ٤٢٥ ق.م) ، وكان خيرا من سلفه في معرفة بلاد العرب ، وهو يقصد من كلمة آرابيا (Arabia) شبه جزيرة العرب كلها ، بل أدخل فيها أيضا جزءا من الأراضي المصرية التي تقع شرقي وادي النيل (راجع دائرة معارف الكتاب المقدس) .

ولكن أكسينفون (Xenophon) (٤٣٠– ٣٥٤ ق.م) أطلق لفظ العرب باطلاق آخر ، فقصد بلفظ عربابة (Arabaya) منطقة تشمل جميع البادية الفاصلة بين العراق والشام مضافا اليها شبه جزيرة سيناء ، أي كل المنطقة الواقعة

« ١ » تي : هذا ، نفس : النفس . . أي هذا قبر ، مرالقيس : امريء القيس ، بر : ابن ، ذو : الذي،أسر التج : امتلك التاج ، الأسدين : قبيلتا أسد ، ونزرو : بنو نزار .

شمالي شبه الجزيرة أو شمالي العربية السعيدة . فقد ذكر « سيلفون » أن ملك الفرس « داريوس » كان قد عيّن حاكما على فينيقيا والعربية ، وهو يقصد بالعربية جنوب سورية أي فلسطين والصحراء المتاخمة لها وصحراء بادية الشام .

وعرفت هذه المنطقة عند السّرْيان باسم «أرب» (Arab) أي عرب منذ القرن الثالث الميلادي ، كما كانوا يطلقون على القسم الشرقي منها ، والذي كان خاضعا لنفوذ الفرس اسم « بيث عربابة» (Beth Arabaya) أو « باعربابة » ، أي أرض العرب .

وربما كان أقدم نص ورد فيه اسم عرب هو نص آشوري يعود الى « شلْمنصّر الثاني » ملك آشور الذي ذكر في حديثه عن معركة قَرْقَرْ (٨٥٤ ق.م) اسما لشيخ عربـي يدعى جُندب أو جُندُب ، وهذا الاسم معروف في العربية ، ولكن كلمة عرب لم تكن تعني عند الآشوريين في ذلك العصر ما نفهمه نحن منها ، بل كانوا يطلقونها على مشيخة كانت تحكم في البادية المتاخمة لحدود آشور حكما يتسع ويتقلص وفق الظروف السياسية ، وحسب قوة الشيخ الحاكم أو ضعفه . على أن ذلك لا يمنع من أن هذا الاسم كان يطلق على سكان الجزيرة العربية كلهم .

وقد كثر بعد ذلك ورود كلمة العرب في النصوص الآشورية ، وكثر فيها الحديث عن « مــاتو آرابي » (Matu-A-ra-bi) أو « ماتو أرْبي » (Matu-Ur-bi) ، وهذا الاصطلاح ورد كثيرا في النقوش الآشورية .

وانتقلت هذه الصيغة الى النصوص الفارسية القديمة ، والى لغة أهل السوس في الفرس القديمة أي في « فوفزتان » ، التي هي مكان العراق الآن .

وكذلك نجد لفظ « عرب » في نصوص العهد القديم ، كما ورد في الاصحاح التاسع عشر من سفر إمشْعيا : « ولا يخيّم هناك عربي » . وفي الاصحاح الخامس والعشرين من سفر إرْميا أيضا : « وكل ملوك العرب قسمان : حضريون وبدويون . » كما جاء أيضا في الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال : « العرب وكل رؤساء قيْدار هم تجار يديك والخطاب لمدينة صور » . ويلاحظ هنا ذكر اسم « قيدار » ، وهو من آباء عدنان في أنساب العرب .

وتدل هذه النصوص على أن اسم « العرب » قديم في الجزيرة العربية وأطرافها ، وان سكانها كانوا يحسون جميعـا بانتمائهم الى هذا الجنس وتميّزهم بهذا الاسم .

بيد أن كثيرا من المستشرقين يفسّرون هذا اللفظ بمعنى البداوة ، ويرون أن كلا من لفظ « عربي » و « أعرابي » معنـاه البدوي ، ويقولون أن أهل البادية في الجزيرة كان يطلق عليهم « عرب » و « عراب » بمعنى سكـان الصحراء . وكانوا يتميزون بعضهم عن بعض بأسماء القبائل مثل : مِزْجَحْ ، وكِندة ، وقيس ، وتميم ، وعبس ، وذبيان ، وبأسماء المناطق مثل : أهل نجد والحجاز واليمن وغير ذلك من المناطق . ولكن قبيل الاسلام فرّق أهالي الجزيرة بين كلمتي عربي وأعرابي ، فأرادوا من الأولى الجنس كله أو سكان الحضر ، وأرادوا من الثانية المعنى الأصلي وهو البدوي الذي يخيم في الصحراء ، وعلى هذه التفرقة وردت الكلمات في القرآن الكريم .

تسميات أخرى لسكان الجزيرة العربية

وقد سمي أهل الجزيرة بأسماء أخرى منذ القدم وان بقي بعضها مستعملا الى اليوم .. من ذلك لفظ (Saracnus) أو (Saraceni) في اليونانية واللاتينية . وكان يطلق في البدء على القبائل العربية التي كانت تقيم في بادية الشام وفي شبه جزيرة سيناء ، ثم توسع في مدلولـه وخصوصا في القرون الرابع والخامس والسادس الميلادية فأطلق على العرب عامة . وأقدم من ذكر هذه التسمية هو « ديوسقوريدس » اليوناني في منتصف القرن الأول للميلاد ، وكثر استعمالها في العصور الوسطى حيث أطلقها المسيحيون على جميع العرب ، وأحيانا على جميع المسلمين عربا كانوا أم غير عرب .

واختلف في تفسير هذا الاسم ، فيرى البعض أنه مركب مــن كلمتين في الأصل هما : سارى قين ، ومعناه : قين سارة ، أي العبدة سارة ، اشارة الى أن قسما كبيرا من العرب ، وهم الاسماعيليون ، ينتمون الى هاجر جاريـة ابراهيم الخليل ، عليه السلام ، ولا سيما اذا كان بعض المؤرخين في القرن الرابع الميلادي يطلقون هذا الاسم أو اللفظ على الاسماعيليين فقط ، وهـم سلالة اسماعيل بـن ابراهيم عليهما السلام .

ويرى آخرون أن الكلمة مشتقة من مادة « سرق » العربية ، وأن « سرسيني » أو « سراكيني » في الأصل هي كلمة « سراقين » ، اشارة الى أن العرب قوم غزاة يعتمدون على الغارات وما تجلبه من الغنائم في حياتهم . على أن الظاهر أن هذه التفسيرات صادرة عن سوء القصد وحب التشنيع .

وهناك من يرى أن الكلمة من مادة (شرق) لأن العرب كانوا يسكنون شرقي بلاد النبط ، أو شرقي مؤاب ، وعمّون ، وفلسطين ، وخصوصا عرب بادية الشام الذين كان يطلق عليهم في التوراة « بنو قدم » (Bene Qadem) أي « بنو المشرق » .

ويفسّر آخرون هذا اللفظ بأنه تحريف لكلمة سراة ، ومعناها سكان جبل السراة أي جبـل الحجاز ، الفاصل بين تهامة ونجد .

وقيل أيضا أنه نسبة الى منطقة يقال لها سرقة التي ذكرها «بطليموس» ، وكانت تقع بين خليج حران الى جانب مصر قريبا من أرض النبط .

وهناك أيضا لفظ « اسكينيت » (Scenite) ويرد هذا اللفظ كثيرا في الكتب اليونانية القديمة ، وأصل معناه سكان الخيام ، من الكلمة الاغريقية « اسكيني » (Scene) ومعناها الخيمة .

وكان هذا الاسم يطلق أيضا على سكان بادية الشام ، وبدو العراق ، وسكان شمالي الجزيرة العربية .

وعرف العرب عند الفُرس منذ القدم باسم « طي » ، وظاهر أن هذا الاسم مأخوذ من كلمة طيء ، وهي قبيلة عربية معروفة كانت تسكن قريبا من الفرس في العراق واحتكت بهم كثيرا ، ويرجع أول ذكر لها الى القرن الثالث قبل الميلاد .

وكذلك أطلق الآراميون في العصور النصرانية على العرب اسم « طايوبي » (Tayopy) ، وهو مشتق من كلمة « طيء » .

ومن هذه الكلمة أيضا أخذ العبرانيون كلمة « طيعة » التي أطلقوها منذ عهد التلمود على العرب ، ثم اشتقت من هذه الكلمة ألفاظ كثيرة في لغات أسيوية مختلفة تطلق كلها بمعنى العرب مثل « تاشيك » (Tashik) ، و « تادجيك » (Tadgik) ، و « تازيك » (Tazik) ، و « تازي » (Tazi) . فهذه الألفاظ تدل كلها أو بعضها على معنى العرب في اللغات البهلوية ، والفارسية ، والأرمينية ، والصينية ، وان كان لفظ « تاشي » (Tashi) يطلق في الصينية على سكان آسيا الوسطى الذين دخلوا الاسلام ، ثم أخذها الاتراك عنهم فأطلقوها على المسلمين في وسط آسيا . ولما كان أكثر مسلمي آسيا الوسطى مــن الفرس ، صارت كلمة « تادجيك» (Tadgik) في اللغة التركية تعني الفرس ■

أجهزة لاسلكية دقيقة ترصد تصرفات الحيوانات

دنيا الحيوان ، ولا شك ، مليئة بالغرائب والطرائف التي ما زال الانسان يحار في تفهم غوامضها وادراك اسرارها . وعلماء الأحياء ما انفكوا يواصلون البحث والدراسة في سبيل امكان التوصل الى بعض الأساليب والوسائل العلمية التي يمكن بها اماطة اللثام عن كثير من الأسرار المحيطة بتصرفات الحيوان وسلوكه الغريب . ومؤخرا توصل العلماء الى ابتكار أجهزة دقيقة تمكنهم من دراسة سلوك الحيوانات البرية وتصرفاتها ليل نهار ، وتتبع حركاتها وسكناتها دون اثارتها أو تنفيرها .

وهذه الأجهزة الدقيقة التي تعرف علميا باسم « Bugs » هي عبارة عن جهاز لاسلكي يتألف من عدة أجهزة ارسال تثبت على أجسام الحيوانات المنوي مراقبتها ، ومحطة التقاط تشاد اما في برج ثابت أو في سيارة متحركة . ومن ميزات هذا الجهاز الجديد انه يساعد الخبراء على كشف كثير من أسرار غريزة الحيوان بعد أن كانت لعصور خلت أمرا غامضا ، كما يساعد العلماء على انقاذ بعض فصائل الحيوان المعرضة لخطر الانقراض ، والحد من انتشار الأمراض الحيوانية ، والعمل على ايجاد أطعمة ومراعي أفضل للحيوانات البرية . والأهم من ذلك أن المعلومات التي يخرج بها الخبراء من دراستهم لتصرفات الحيوان قد تساعدهم الى حد ما على تعليل الغوامض من سلوك الانسان وتصرفاته .

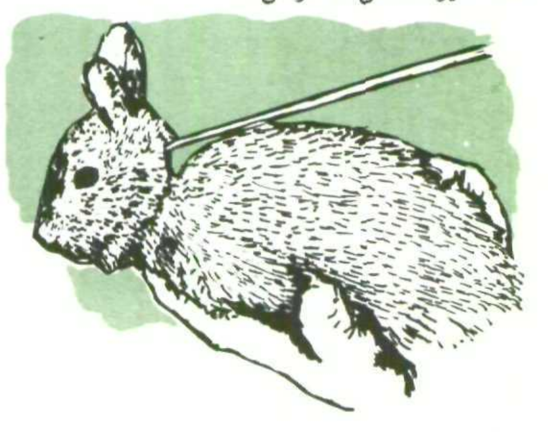
وبفضل هذا النوع الجديد من الأجهزة أصبح في مقدور العلماء اليوم معرفة عدد الغزلان التي يحتمل صيدها بعد نقلها من مواطنها الى بقاع غريبة ، كما أصبح في مقدورهم معرفة عدد المرات التي يغير فيها الحيوان مسكنه ، والأماكن التي يقضي فيها فصل الصيف أو فصل الشتاء ، وكذلك معرفة سرعة دقات قلوب بعض الحيوانات أثناء العراك . ويحاول العلماء تركيب أجهزة ارسال في التجويفات الهوائية الموجودة داخل بيوض البط البري ، وذلك لتحديد تأثيرات الرعاية الأبوية لديها .

وترسل أجهزة الارسال هذه اشارات صوتية متواصلة عبر الهوائي ، فتلتقطها محطات الاستقبال . والاشارات الصوتية التي تطلقها أجهزة الارسال ذات ذبذبات متباينة بحيث يمكن تتبع أجهزة ارسال عديدة في آن واحد من محطة استقبال واحدة . وأجهزة مراقبة الحيوانات البرية تعمل على مدى أقصاه ثلاثين كيلومترا عن محطة الالتقاط .

وتثبت أجهزة الارسال بزرع الأجزاء الحساسة داخل أجسام الحيوانات بعمليات جراحية لا تضر بالحيوان . وهذا يعني انه ينبغي القبض على الحيوان مرتين ، احداهما لتثبيت أجهزة الارسال عليه ، والأخرى لاخراجها منه عقب الفراغ من اجراء التجارب المطلوبة . ويستعمل العلماء للامساك بالحيوانات المفترسة حقنا مخدرة يطلقونها عليها من فوهات البنادق .

ومتى ثبت جهاز الارسال على الحيوان ، جرى تسجيل تحركاته ، وحاجاته وعاداته . فرصد تحركات الجرذان والأمكنة التي ترتادها أثناء الليل ، مثلا ، قد تكون من الأهمية بحيث تساعد على اكتشاف مصادر بعض الأمراض التي يصاب بها الانسان. والجدير بالذكر أن أجهزة رصد حركات الحيوانات من الدقة بحيث يستطيع الخبراء بواسطتها التمييز بين الطائر السليم والطائر المعتل من طريقة طيرانه ، ومعرفة ما اذا كان التمساح المزود بها يتمشى على اليابسة ، أو يطفو على سطح الماء ، أو يغوص في أعماقه .

ومن بين التجارب التي استخدمت فيها هذه الأجهزة الجديدة أن اثنين من الخبراء قضيا ليلة كاملة في سيارتهما أمام جهازين للالتقاط ، يرصدان بهما تحركات خمسة من الأرانب البرية زودت بأجهزة ارسال ربطت بأطواق حول أعناقها . وكانا يبعدان عن بعضهما البعض مئات الأميال ، كما كانا يتخاطبان لاسلكيا . وقد وضعا خلال سهرتهما هذه لوحة بيانية تشير الى أثر تحركات الأرانب ، ساعدت ، الى حد كبير ، لجنة حماية الحيوان على معرفة المناطق التي تتردد الأرانب اليها أكثر من غيرها . وأكثر ما يسترعي اهتمام هذه اللجنة حماية الحيوانات ورعايتها ، ودراسة عاداتها دراسة وافية ، بحيث تستطيع تحديد موسم الصيد ، وفي الوقت نفسه المحافظة على هذه الحيوانات من الانقراض .



أرنب بري ، وقد زود بأحد أجهزة الارسال الجديدة لرصد تصرفاته وسلوكه .

وقام عالمان آخران برصد تحركات ستة وسبعين غزالا في ولاية « الينوي » بواسطة محطتي التقاط ثابتتين ، فتبين لهما أثناء ذلك انه لا يمكن أن تنتقل العدوى من الغزلان البرية الى الغزلان الأليفة ، وان كانت كلها تتردد على المرعى نفسه ، وتشرب من المياه نفسها ، ولكن في مواعيد مختلفة تفصل بينها على الأقل فترة طولها ثماني ساعات . كما تبين لهذين العالمين أيضا أن الغزلان التي تنقل من مواطن نشأتها الى مناطق غريبة ، يصعب عليها تجنب الصيادين .

وفي تجربة أخرى على الغزلان تبين أن الغزال يغير مكان استراحته ونومه بين مرتين وأربع مرات في النهار ، وبين أربع وخمس مرات في الليل .

وبفضل جهاز ألكتروني لمراقبة الحيوانات البرية استطاع لفيف من العلماء معرفة الكثير من عادات الأرانب البرية المدعوة باسم « حذاء الثلج » ، ومن بين هذه العادات مثلا انها تعود لتطمر منزلها نهائيا بعد ثلاث ساعات من خروجها للبحث عن طعامها ، وهي لا تغادر مخابئها الا اذا كانت مضطرة لاطعام صغارها ، ولا يكون ذلك الا ليلا . واستطاع العلماء أيضا أن يثبتوا أن الذئاب التي يحتجزها الانسان مدة من الزمن ثم يطلق سراحها ثانية ، تسمح لها أسرابها بالانضمام اليها . كما رصدوا تصرفات ديوك الحبش البرية وتحركاتها لدى اختلاطها بالأسراب الداجنة .

ويقوم اثنان من مشاهير الخبراء في علم الحيوان باستخدام هذا النوع من أجهزة المراقبة في رصد تحركات الدب الرمادي ، وقد جرت دراسة تصرفات هذا الحيوان ، فتبين أن له حاسة سادسة تنذره متى تكون الثلوج قوية لدرجة انها تسد عليه مدخل مأواه . فيهرع الى وكره قبل أن يتم ذلك . ومن خصائص هذه الدببة ، انها تبني أوكارها دائما تحت جذوع الأشجار الضخمة وفي الجهات الشمالية من المنحدرات لتأمن تساقط الكتل الثلجية عليها أثناء ذوبان الجليد ، كما تحرص على جعل أماكن نومها مرتفعة عن المدخل ، وذلك للحفاظ على الحرارة الداخلية .

وباستخدام أجهزة المراقبة يتوقع رجال الطب ايجاد معلومات تسهم في تحسين صحة الانسان . فعن طريق زرع أجهزة مراقبة داخل أجسام الحيوانات البرية ذات الدورات الدموية الشبيهة بدورات جسم الانسان ، كالخنازير والقرود البرية ، قد يتسنى للعلماء دراسة التفاعلات الفسيولوجية ، ومعرفة أسباب بعض الأمراض الناتجة عن تفاوت في ارتفاع ضغط الدم ، وازدياد خفقان القلب أثناء حالات التوتر ، وغير ذلك من الأعراض الطبية المبهمة .

وفي هذا المجال قام عالم أحياء بدراسة تأثير اختلاف الارتفاع على بعض ذكور الخنازير والغزلان ، فتبين له أن كلا النوعين من الحيوان يتأثران عندما ينقلان بسرعة من علو ١٥٠٠ متر الى علو ٣٠٠٠ متر تقريبا ، ولكن سرعان ما يتأقلم الغزال ويعتاد على الجو الجديد ، في حين أن الخنزير يغدو ثقيل الحركة وربما يصاب بالصداع . واذا تعرض باستمرار لهذا التفاوت في الارتفاع فقد يصاب بأمراض في القلب والرئتين .

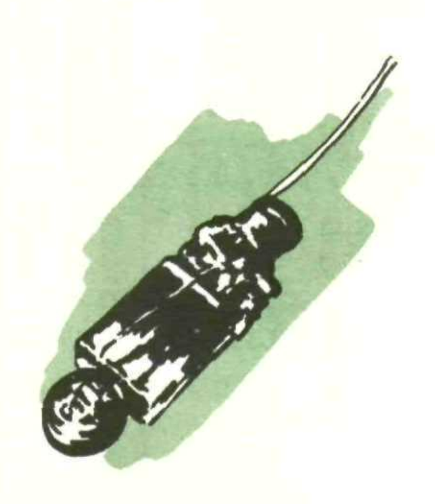
وأجرى أساتذة جامعة واشنطن دراسات واسعة على القرود الافريقية ، التي تعتبر من أكثر الحيوانات شبها بالانسان من حيث التركيب الفسيولوجي ، استخدموا خلالها أجهزة المراقبة نفسها . ولكنهم لا يزالون حتى الآن يحللون المعلومات التي حصلوا عليها فيما مضى بقصد التوصل الى فهم كيفية عمل قلب الانسان أثناء التوتر .

وتتضمن أجهزة المراقبة أجهزة خاصة تقوم بتخدير الحيوانات لدى تلقي الشارة اللاسلكية من المحطة الموجهة ، وذلك في سبيل ايجاد طريقة سهلة لاسترجاع أجهزة الارسال التي تبلغ قيمة كل منها حوالي ٢٢٥٠٠ ريال سعودي . ويتوقع العلماء ، باستعمال هذا النوع الجديد من أجهزة المراقبة بشكل واسع النطاق خلال السنوات العشر القادمة ، أن يميطوا اللثام عن كثير من الأمور الغامضة التي تكتنف حياة الانسان ، عن طريق معرفة الخواص الفسيولوجية المشتركة بينه وبين مختلف أنواع الحيوان ■

عن مجلة « ساينس دايجست »



احد الطيور البرية التي استخدم في دراسة عاداتها ومواسم هجرتها هذا الجهاز الدقيق المزروع في جوفه.



نموذج لجهاز الارسال الجديد الخاص برصد تحركات الحيوانات البرية وتصرفاتها . وقد قام بتصميمه البروفسور « بل كوشران » من جامعة «الينوي» الأمريكية .

الجديد والقديم

بقلم الاستاذ وديع فلسطين

أصوات التجديد مسموعة في كل وقت وأوان ، ينادي بها الناس جهرة والحاحا ، ويدعو اليها الدعاة مفتونين ببريق التجديد وسحر ألفاظه .

ومن أكبر الأخطاء التي يتردى فيها أنصار التجديد في كل عصر ومصر اعتقادهم أن التجديد الذي يدعون اليه وينادون به ناشيء من فراغ ، فليس له بالماضي سابقة صلة ، وليس له بالتراث أدنى وشيجة ، وانما هو جديـد جديد . هبطت به أسباب الالهام ، وانشقت عنه دنى الابداع ، فصار بكرا جديدا ناسخا للقديم .. وكل جديد خير من كل قديم .

ولو كان هذا الرأي صحيحا ، لقطع الناس صلتهم بالأمس المدبر مع كل مشرق شمس ، ولكأنهم يولدون من جديد في الفجر الطالع كل صباح ، ولكأنهم يبدأون يومهم بذهن خلا من من كل شيء ، وصفحة بيضاء من كل أثر ، لأن القديم قد ذهب في بطن الدهر ، والجديد قد وفد من عدم .. وهكذا دواليك مع كل اصباح .

والحياة ناموسها غير هذا الناموس ، ونظامها غير هذا النظام ، لأن في سننها الراسخة اتصال الحاضر بالماضي ، واليوم بالأمس ، وارتباط الحياة الجديدة بالحياة القديمة ، واقتران الفرع بالأصل والجذع بالجذر . فتيار الحياة موصول الحلقات ، ومياهها تتدفق في الوادي كنهر مصطخب ، لا طلاق بين منبعه ومصبه . ولا انفصال بين أغواره وأسطحه . فلا جديد بغير قديم ، ولا حاضر بغير ماض . ولكل الحادثات والمبتدعات مقدمات تستقرأ ولو ضربت في أطواء التاريخ . وذيول ترصد ولو تراخت عليها السنون . ولا بنيان الا على أساس ، ولا ظاهرة الا لها تعليلاتها وأسباب نشأتها . فالجديد المخالف في صميمه لطبائع الحياة ونواميسها انبعاث من لا شيء ، وصدور من عدم ، وليست له أسس يرتكن اليها أو قواعد يكون اليها المآب . مثل هذا الجديد لا يكاد يشبه الا بأخلاط الصور والمرئيات التي يهلوس بها الذهن في مضطرب الأحلام ، وتجترها المخيلة من أمشاج من وقائع النهار ، فاذا استيقظ النائم تبددت أحلامه ولم يعد يذكر منها شيئا ذا بال .

والذي لا ريب فيه أن التجديد ضرورة حتمية في كل مظهر من مظاهر الحياة ، في العلم وفي الفن وفي الأدب وفي العمران وفي الصناعة وفي الزراعة وفي كل شيء . ولولا حركات التجديد المتصلة التي شملت الحيـاة الانسانية جميعا ، لبقيت الحياة تتعثر في فطرتها الأولى ، ولبقي الفكر صريع وهدته البدائية ، ولظل العالم متخلفا في مضامير الحضارة والعمران . فلا خلاف على ضرورة التجديد ، ولا على أهميته ، ولا على لزومه . وانما الخلاف على شكل التجديد ومداه ، وعلى قدرته على مسايرة السليقة العامة ، ثم على فائدته من حيث اثراء الحياة بما يجعلها أدعى الى البحبوحة وأبعث على الهناءة . واذا كان الجديد ضروريا ، فليس معنى ذلك أن كل جديد صالح في جميع الأوقات وبالنسبة لجميع الناس ، وأن كل قديم منبوذ . فمن الجديد ما ترفضه البديهة التلقائية دون كثير تفكير . ومن القديم ما يثبت قرونا بعد قرون فلا يتبين الناس منه الا كل خير ونفع . فاذا دعا زيد من الناس مثلا الى تعديل نظام المشي بحيث تسعى الناس على أيديها بدلا من الأقدام ، كان هذا « التجديد » مرفوضا على التو ، لأنه خالف أوليات البديهيات وصدم السليقة الانسانية صدمة لا تخلو من فجاجة ظاهرة . واذا قال غيره ان على الناس أن تأكل بأنوفها لا بأفواهها مسايرة لدواعي « التجديد » ، لم تصادف هذه الدعوة استجابة من أحد ، لأن جديدها مذموم مقيت بعيد الأضرار . فمثل هذا التجديد ناب بادي الشذوذ ، ومن تمام الحجى اهماله ، لأنه يتعارض مع علم مستقر آزرته التجربة ، هو علم وظائف الأعضاء . وخير منه القديم الذي ألفه الناس وجروا عليه في حياتهم اليومية واستطابوا عشرته بعد اختبار وامتحان طويلين .

وهناك تجديد مقبول ، له أصل منيع يستند اليه ، وله تدرج منطقي يمتد اليه ، وهو لا يخالف سليقة ولا ينافي ناموسا لأنه تطور دعت اليه مطالب حضارية آمرة أو اقتضته كشوف حديثة أو حتمته اتجاهات فكرية انصرفت اليها الأذهان . فالتجديد ليس ابداعـا مطلقا مبتوت الصلة بالموروثات ، وانما هو اضافة الى شيء مألوف أو تكييف ليس للناس به عهد لشيء أنسوه وخبروه .

فاذا انتقلنا من مجال التعميم الى مجال التخصيص في ميداني الأدب والفن ، لوحظ أن التجديد في هذين الميدانين لا يكاد يخرج عن دوائر معينة ، المزج بين الألوان والأخيلة بطريقة مبتكرة ، فتلوح للناظر أو القاريء ظلالا مبدعة في فتنتها ، تكاد تستقل ببهائها عن كل ما سبق اليه أهل الأدب والفن . أو كمعالجة المواقف الانسانية من زوايا لم يعتدها الناس ، فتبدو الصورة الأدبية أو الفنية متفردة تفردا باهرا . أو كتطويع الريشة أو القلم لأداء تعبيرات في الخطوط أو في الأساليب تتجلى فيها جمالية غير معهودة . أو كالاتيان بأفكار مما لم تستنفده أقلام المصورين وريشهم.

أما الخامة التي يتحقق بها التجديد في كل مظاهر الأدب والفن ، فهي مشتركة عامة . فهي عند الكتاب اللغة بكل ما تملك من معاجم البديع والبيان ، وبكل ما فيها من فلسفة وعبقرية وحيوية وقدرة على التعبير والتصوير . وهي عند

الرسام ألوانه وأوراقه وريشه وخيالاته والطبيعة الجميلة من حوله .

فاذا تخلى أديب أو مصور أو فنان عن هذه الخامة في محاولة انقلابية للتجديد ألفى نفسه بأدبه وفنه في متاهات نائية عن التجاوب المطلوب مع الناس، ومن ثم تنعدم أسباب التقدير اللازمة لتشجيعه على المضي في الطريق . ومعروف أن الأدب والفن ، وأن خلصا للأدب والفن خلوصا كاملا ، لا يستطيعان أن يستغنيا عن التجاوب الحتمي مع الناس . فلا أدب ان لم يكن مقروءا مفهوما بنائل الاعجاب من جمهرة كبيرة من القراء ، ولا فن ان لم تكن سبيله ممهدة الى أذواق الناس ومشاعرها بمستحوذ الرضا من عدد كبير من المشاهدين . فليست العبرة بتحبير الصفحات أو بتسويد اللوحات أو بسوق آراء ناشزة عن الاجماع العام ، باسم التجديد في الأدب أو الفن ، وانما العبرة بمادتها ومحتواها وباستحداث قوالب وصور تواتي الذوق السائد في النهضة الأدبية والفنية ، وتلقى منه قبولا ورضا ، بل اعجابا شاملا .

والنظرة السليمة الى العمل الأدبي والفني لا تكون الا بالاستفسار عن هذا العمل هل هو قديم أو جديد ، وانما تكون بالسؤال عن نوع العمل ، هل هو جيد أو رديء . فالجودة بكل معايير النقد هي المقياس الأول والأخير للعمل الأدبي والفني ، وهي التي تحملنا حملا على تذوق آثار المعري والبحتري والمتنبي ، وآثار شكسبير وابسن ووايلد وغيرهم ، وان تكن تفصلنا عنهم قرون طوال . والخلود الذي تضفيه الحياة على العمل الأدبي والفني ، هو خلود لجودته وقيمته ، وليس خلودا لجدته أو قدمه .

ومعروف أن عمر الجديد قصير نسبي يرتهن بفترة زمنية ، تقصر ولو طالت . فجديد الأمس يصبح قديما في الغد ، وجديد الغد يصبح قديما بعد غد . ومن الجديد ما يفضل القديم متانة ورشاقة وذوقا وجمالا وأداء ، ومن القديم ما يفضل الجديد بآثاره الفنية الخالدة التي تزداد نفاسة وقيمة بمرور الأيام ، وكأنها قديم متجدد ، أو جديد لا تبلي الأيام جدته .

وصفوة القول انه لا ينبغي أن يبهرنا الجديد ، كل جديد ، لمجرد كونه جديدا ، أو نزدري القديم ، كل قديم ، لمجرد كونه قديما عتيقا . وانما علينا أن نقيس العمل الأدبي والفني بمقاييس الجودة ، وأن نحكم عليه بمقدار ما يمثله من قيم رفيعة باقية وأصالة عميقة راسخة وجمال أخاذ ساب ■

الغزالي والغزال

اعداد الاستاذ الغزالي حرب

كم من شطيرة تغني حيث لا تغني سواها ، وكم من كلمة موجزة تصادف من الصدور انشراحا ، ومن النفوس ارتياحا

المشهورون في تاريخنا العربي بلقب «الغزالي» لانكاد نعرف منهم الا أبا حامد الغزالي الملقب بحجة الاسلام ، ومؤلف «احياء علوم الدين» و «تهافت الفلاسفة» و «المستصفي» ، وغيرها .

أما المشهورون في تاريخنا بلقب « الغزال » ، فأذكر منهم اثنين : أولهما ، أشار اليه الجاحظ في الجزء الثاني من كتابه «البخلاء» قائلا فيه مانصه : «وكان الغزال أعجوبة في البخل . وقد سخر من بخله في معاملته لزكريا القطان ، وبخله في معاملته للسماك الذي أكراه نصف قطعة أرضه .. الخ» .

وثانيهما ، اشاد به المؤرخون قديما وحديثا ، ونعني به يحيى بن حكم ، الملقب بالغزال ، الذي اختاره الخليفة الأموي الأندلسي ، عبد الرحمن الثاني عام ٨٣٩م ، شاعرا له ، ثم سفيرا دبلوماسيا بينه وبين ملك «النورمان» ، وهو اسم أطلقه العرب القدامى على أبناء الجزر البريطانية ، وذلك بعد أن نجح في سفارته السياسية لدي بلاط « تيوفيلس » امبراطور « بيزنطة » . ويكاد المؤرخون شرقا وغربا يجمعون على أن « الغزال » هذا كان سفيرا نموذجيا عظيما . وترجع أسباب بعثته الى النورمان الى أن هؤلاء شنوا الغارات على مدن غرب أوربا ، وامتدت غاراتهم الى اشبيلية ، المعروفة اليوم باسم « سيسيليا » ، والتي كانت حينذاك خاضعة لحكم الامويين ، ومشهورة بثرائها الموفور . فقاومهم الاندلسيون والامويون مقاومة باسلة ، جعلت « تورجايوس » ملك النورمان يرسل من شمال ايرلندا سفارة لطلب الصلح والأمان الى عبد الرحمن الثاني ، امير الأندلس . فرحب عبد الرحمن الثاني برسل ملك النورمان ، ثم أعد سفارة تعود مع السفارة النورمانية ، لعقد الصلح والسلام وجعل رياسة هذه السفارة « للغزال » ، الذي سار عام ٢٣١هـ « ٨٤٥م » الى الجزر البريطانية ، مصطحبا معه مساعدا له يسمى يحيى بن حبيب . وكان من عادة الداخلين على ملك النورمان أن يسجدوا له اجلالا وتعظيما ، ولكن سفيرنا الاسلامي «الغزال» شرط قبل دخوله عليه عدم السجود ، لأنه لا يسجد لغير الله فدبر ملك النورمان حيلة رآها كفيلة بحمل «الغزال» على السجود له من حيث لايحتسب ، فأمر بجعل المدخل الذي يفضي الى عرشه الملكي ضيقا قصيرا بحيث يرغم الداخل منه على الانحناء راكعا أو شبه راكع . ولكن « الغزال » الداهية فطن الى هذه الحيلة المدبرة ، فأسعفته بديهته بالجلوس على الأرض والزحف في هذا المدخل حتى اجتاز الباب ، ثم استوى واقفا مرفوع الرأس .

وقد قال شوقي في هذا المعنى من قصيدته الاندلسية:

لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
ولا جباههم الا مصلينا

وقال علي الجارم في المعنى نفسه :

عشنا أعزاء ملء الأرض ما لمست
جباهنا تربها الا مصلينا



منظر جوي لبلدة الهفوف ، المدينة الرئيسية في منطقة الاحساء ، تحف بها المزارع الفيحاء .

الاحساء

أو الواحة المزدوجة



بقايا مسجد « جواثى » الاثري الشهير الذي اقيمت فيه ثانية جمعة في الاسلام ، وقد اقيمت اول جمعة في المدينة المنورة .

كانت الاحساء في العصور القديمة الغابرة تعرف باسم منطقة هجر نسبة الى أكبر مدنها التي كانت قائمة آنذاك ، والتي أصبحت اليوم مجهولة الموقع . كما كانت تعتبر جزءا من اقليم البحرين ، الذي كان يمتد من الفرات شمالا الى عمان جنوبا . على أن اسم البحرين تقلص تدريجيا عن المنطقة وأصبح يطلق على مجموعة من الجزر في الخليج العربي كانت تعرف باسم جزر « أوال » . بينما برزت في المنطقة مدينة جديدة دعيت بالاحساء ، بناها « أبو طاهر الحسن بن سعيد الجنابي القرمطي » ليجعل منها مقرا لحكمه . ثم أخذت تنمو وتزدهر وتتوسع فكثر النازحون اليها ، حتى اشتهرت وطغى اسمها على جميع المدن التي كانت قائمة في المنطقة آنذاك ، ثم أصبحت المنطقة بأسرها تدعى باسم اقليم الاحساء .

ويختلف المؤرخون في موقع مدينة الاحساء التي بادت مع الزمن . فياقوت الحموي في « معجم البلدان » يعتبر أن الاحساء مدينة قامت على أنقاض مدينة هجر ، حيث يقول : « الاحساء مدينة بالبحرين معروفة مشهورة ، كان أول من بناها وحصنها وجعلها قصبة هجر أبو طاهر الحسن ابن سعيد الجنابي القرمطي ، على أنقاض مدينة هجر سنة سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة . »

أما المستشرق الأمريكي « فيدال » فيرى من خلال زياراته المتعددة للمنطقة ، ومن خلال أبحاثه ودراساته التي ضمنها كتابه (واحة الاحساء) « انه كان على مقربة من مدينة هجر القديمة قرية صغيرة تدعى الحسا ، هذه القرية نزل فيها أبو سعيد الجنابي أمير القرامطة في القرن العاشر الميلادي ، فعمرها وبناها وحصنها وأقام فيها قصرا أو قلعة ، دعاها باسم « المؤمنية » . ولكن الناس لم يستسيغوا هذه التسمية ، فأبقوا على القرية اسم الاحساء . وأخذت هذه القرية تنمو وتزدهر ، حتى طغت على اسم هجر ، وبالتالي أصبحت المنطقة بأسرها تدعى باسم منطقة الاحساء . » ويرجح « فيدال » أن مدينة الاحساء القديمة كانت قائمة بجوار قرية « البطّالية » .

ويؤيده في قوله هذا المؤرخ الشيخ يوسف المبارك ، أمين المكتبة القطرية في الاحساء ، ويضيف أن من بناها هو أبو طاهر القرمطي سنة ٣١٤ هجرية . وقد دعيت فيما بعد باسم البطالية لأن « عبد الله بن علي العيوني » أقطعها عام ٤٧٠هـ لأخيه من أمه « بطال ابن مالك » ، وبذلك أصبحت تسمى باسم « بلاد بن بطال » ، ثم حرّفت الى « البطالية ». ويُعتقد بأن قرية البطّالية الحالية ما هي الا جزء من البطّالية القديمة التي كانت تتوسطها عين الجوهرية .

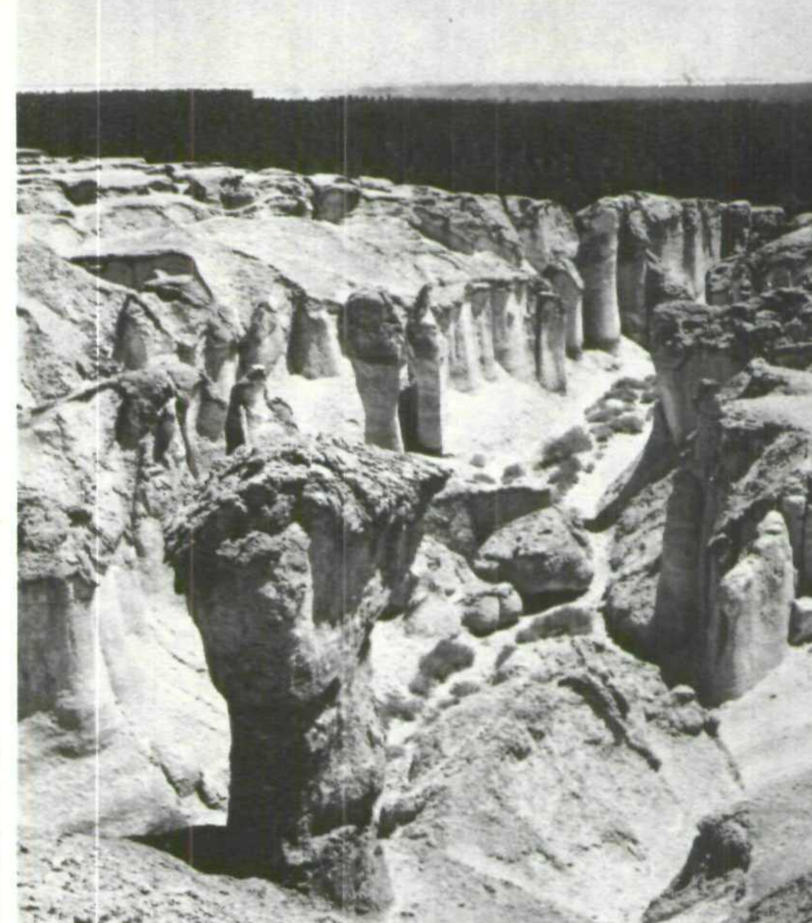
ويرجح بعض المؤرخين ان مدينة الهفوف الحالية هي امتداد لمدينة الاحساء ، ومنهم « فيدال » الذي يرى أن بعض الأغنياء والتجار كانوا يملكون مزارع في مكان يدعى الهفوف خارج أسوار مدينة الاحساء ، فعمروا هذه المزارع وبنوا فيها المنازل للاصطياف . وهكذا مع الزمن تطورت المزارع الى قرية نمت وازدهرت .

تسمية الأحساء

جاء في الكامل للمبرد : « الحسا جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة ، فاذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ، ومنع الرمل السمائم أن تنشفه . فاذا بحث في ذلك الرمل أصيب الماء. يقال حسي واحساء وحساء . » وهذا الوصف للحساء ينطبق على أرض الاحساء . يذكر شيوخ الهفوف ، ان الأهلين القدماء كانوا لا يستخدمون عيون الماء الغزيرة المتوفرة للشرب والاستهلاك المنزلي ، وانما كانوا يستخدمون حساء يحفرونها في صحون الدور .

الأحساء في صدر الاسلام

مما عرف عن أهل الاحساء أنهم اعتنقوا الاسلام طوعا على غرار أهل المدينة المنورة . فيروى أن المنذر بن عايذ الملقب « بالأشج » أرسل المنقذ بن حيان الى المدينة المنورة ليقف على حقيقة ما توارد اليه من أخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وظهور الدعوة الاسلامية المباركة . فتوجه منقذ الى المدينة وقابل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأسلم على يديه . ولما عاد الى بلاده ، أرسل معه الرسول صلوات الله وسلامه عليه كتابا الى المنذر يدعوه الى الاسلام . ولكن منقذ بن حيان ، أخفى الكتاب عن المنذر خشية العاقبة ، وأبقى أمر اسلامه سرا . وعندما لحظت زوجة منقذ ما طرأ على زوجها من تغير بعد عودته من المدينة ، رفعت أمره الى المنذر ، فاستدعاه واستفسره عما سمع . فاعترف له منقذ بما كان ، وأعطاه الكتاب . واثر الاطلاع على الكتاب ركب المنذر مع أربعة عشر رجلا من أصحابه قاصدين المدينة المنورة حيث قابلوا رسول الله وأسلموا على يديه . وقد بشر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وصولهم بقوله : « يأتيكم وفد من خيار أهل المشرق أشبه الناس شعارا وابشارا بكم يا أهل المدينة . »



جبل «قارة» وكهوفه العديدة، وهو من أهم المعالم الطبيعية في منطقة الاحساء.



احد مداخل البيوت التقليدية في الاحساء، ويغلب عليه الطابع العربي القديم

الأحساء في العصر الحديث

ألحقت الاحساء، إبان كانت تحت حكم الدولة العثمانية، بولاية بغداد والبصرة، ثم جعلت لواء له حاكم يدعى المتصرف. ويقول محمد الآلوسي في كتابه (تاريخ نجد): «لما دخلت الاحساء تحت حكم الدولة جعلوها لواء، وعينوا لها متصرفا. وهذا اللواء مؤلف من قضاء القطيف وقطر والهفوف. ومركز المتصرفية الهفوف.» وكان مقر الحاكم في الهفوف في حي يدعى «الكوت». وقد بني حول هذا الحي سور يبلغ ارتفاعه ١٠ أمتار وسمك جدرانه حوالي المترين، وكان يعرف «باللوحة»، وشيد حوله ٣٠ برجا حربيا أمر ببنائها الحاكم التركي آنذاك ابراهيم باشا، وبقيت الكوت مقرا للحاكم التركي حتى عام ١٩١٣م. وفي عام ١٣٧٦ للهجرة (١٩٥٧م) أزيل هذا السور.

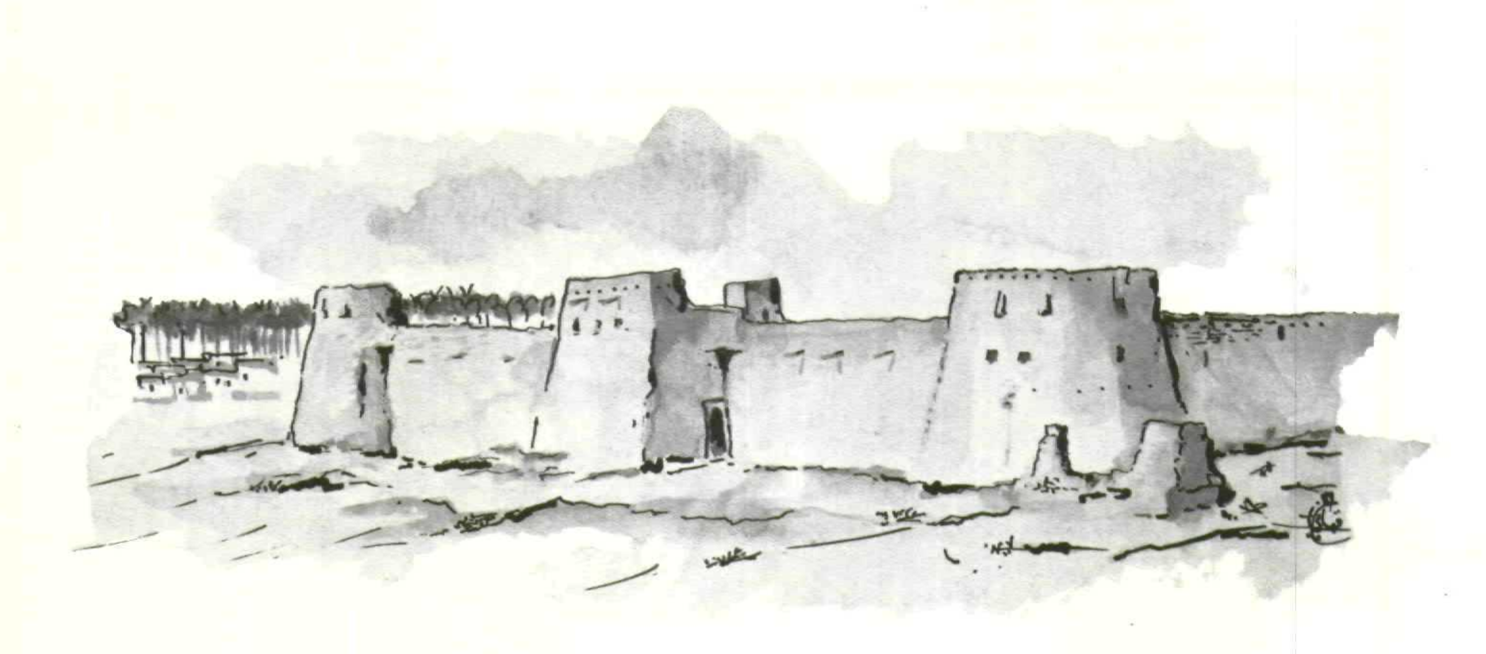
وبعد أن وحد جلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود أجزاء الجزيرة العربية تحت اسم المملكة العربية السعودية، جعل ابن عمه سمو الأمير عبد الله بن جلوي حاكما عاما على منطقة الاحساء. فاتخذ الأمير من الهفوف مقرا لأمارته التي كانت تمتد من الخليج العربي شرقا، الى صحراء الدهناء غربا، ومن حدود الكويت شمالا الى حدود قطر جنوبا. وبقيت كلمة الاحساء تطلق على هذه المنطقة حتى عام ١٣٧٥ للهجرة (١٩٥٦م) عندما صدر قرار ملكي بتسمية المنطقة كلها باسم المنطقة الشرقية، ونقل مركز الامارة من الهفوف الى الدمام. وأصبحت منطقة الاحساء امارة تابعة للمنطقة الشرقية تضم مدينتي الهفوف والمبرّز وما يتبعهما من قرى منتشرة في الواحتين الشمالية والشرقية، اللتين حملتا المستشرق الراحل «عبد الله فيلبي» على تسمية هذه المنطقة باسم «الواحة المزدوجة».

موقعها الجغرافي

تشغل الاحساء رقعة من الأرض مساحتها حوالي ١٨٠ كيلومترا مربعا. وتقع بين خطي العرض ٢١ ٢٥° و ٣٧ ٢٥°، وخطي الطول ٣٣ ٤٩ و٤٦ ٤٩. ويبلغ طول منطقة الاحساء من الشمال الى الجنوب حوالي ٢٥ كيلومترا، ومن الشرق الى الغرب حوالي ١٨ كيلومترا، وتنتهي حدود الاحساء الشمالية بقرية المطيرفة، والشرقية بقرية الجشة والجنوبية بمدينة الهفوف.

ومناخ الاحساء حار رطب في الصيف، ولطيف معتدل قليل الرطوبة في الشتاء. وتتفاوت الحرارة فيها بين ١٢ و ٤٦ درجة مئوية. وقد تصل درجة الرطوبة فيهافي بعض أيام الصيف الى ١٠٠ في المائة، أما أمطارها فقليلة جدا، ولا يزيد معدل سقوطها السنوي على ١٠ سنتيمترات، وترتفع المنطقة نحو ١٥٠ مترا عن سطح البحر، وفيها بعض التلال الصخرية البارزة. وتقع معظم مزارعها في الجزء الشرقي منها، وهو القسم الآهل بأكبر عدد من السكان.

وتشكل الاحساء أكبر رقعة زراعية في المملكة العربية السعودية، اذ تقدر مساحة الأرض الصالحة للزراعة فيها بحوالي ٣٠٠٠٠ فدان. وينتشر بين واحتي الاحساء مناطق ذات كثبان رملية متحركة قد يصل ارتفاعها في بعض الأماكن الى حوالي ٣٠ مترا. هذه الكثبان كانت لفترة خلت ترحف باتجاه العمران، فتهدد قرى المنطقة



احدى القلاع الأثرية في بلدة المبرز بالإحساء .

الواجهة الأمامية لمبنى بلدية الأحساء .

بالدمار ، الأمر الذي حدا بالحكومة الى ايجاد مشروع ضخم لتثبيت كثبان الرمال . ويتخلل المناطق الرملية بقاع سبخة منخفضة ذات سطوح مستوية ، تتجمع فيها مياه الأمطار عادة .

ويقدر عدد سكان منطقة الاحساء بنحو ٢٢٠ ألف نسمة ، منهم حوالي ١٠٠ ألف نسمة يقطنون في مدينة الهفوف . ويجري حاليا احصاء رسمي لسكان هذه المنطقة يتوقع صدوره في المستقبل القريب . ويقسم سكان المنطقة الى قسمين بدو وحضر ، ويجري توطين البدو بموجب مشروع حيوي ضخم يعرف بـ «مشروع الفيصل النموذجي » في حرض ، لتوطين حوالي ٥٠٠٠ عائلة من البدو في مزارع حديثة ، وتعويدهم على ممارسة أعمال الزراعة .

مدن الأحساء وقراها

تشتمل الاحساء على مدينتي الهفوف والمبرز وعلى ٥٤ قرية و ١٨ هجرة (١).

فالهفوف هي عاصمة الاحساء ، ومركز امارة المنطقة ، وفيها فروع مختلف الوزارات . وأمير المنطقة الحالي ،وهو الأمير محمد بن فهد آل جلوي ، شاب في الأربعينات من العمر ، كثير القراءة والاطلاع ، ملم بالأمور التاريخية .

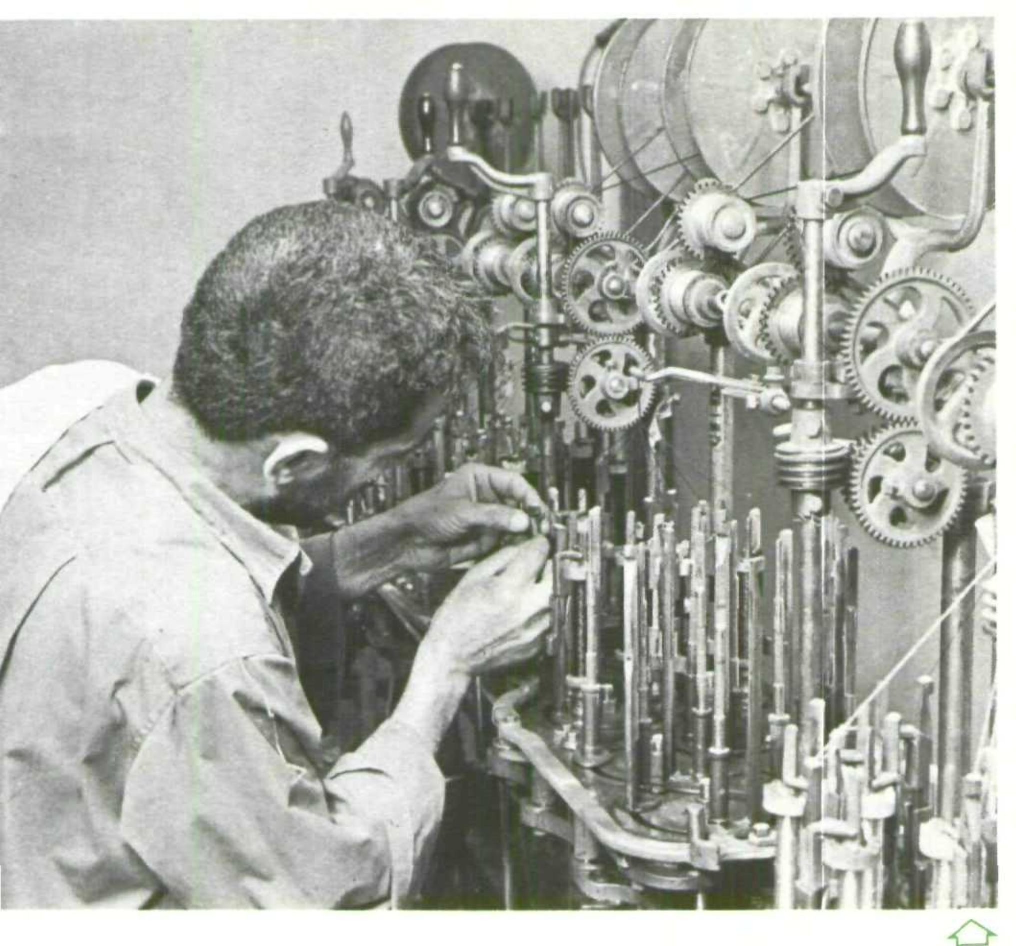
وتنقسم الهفوف الى ثلاث أقسام رئيسية هي الكوت في الشمال الشرقي ، والرفعة في الشرق ، والنعاثل في الجنوب والغرب . وفي الكوت قصر الأمارة الأثري القديم ، الذي يغلب على بنائه الطراز العربي الأصيل . وقد جرى ترميمه منذ حين ، ولا يزال مقرا للأمارة . وفيها أيضا سوق المدينة الرئيسي . أما النعاثل فينسب الى بطن من بني عقيل يعرف بهذا الاسم ، وهو أكبر أقسام الهفوف . و الرفعة كما يدل اسمها أعلى منطقة في الهفوف وهي ذات مناخ جيد .

وتضم الهفوف حوالي مائة وسبعة مساجد .

وتزود الهفوف بمياه الآبار الارتوازية ، وفيها مع المبرز أربع شركات أهلية وخامسة حكومية لتوزيع المياه الصالحة للشرب على الأهلين .

وفي الهفوف بوجه عام حركة عمران واسعة النطاق .

والمبرّز وهي المدينة الثانية في الاحساء ، وتبعد عن الهفوف الى الشمال ثلاثة كيلومترات . وقد سميت كذلك لبروز حجاج الاحساء اليها قديما واجتماعهم فيها استعدادا للتوجه الى بيت الله الحرام .



قام في الاحساء مصنعان لانتاج الاقمشة والزري الخاصة بصناعة العبي مزودان بأنوال حياكة آلية .



« ١ » الهجرة : مجموعة من مساكن البدو يصطافون فيها ، ولهم فيها منازل ومزارع .

ويبلغ تعداد سكان المبرز حوالي ٣٠ ألف نسمة .

أما قرى الاحساء فاكبرها العيون والجفر والجشة والطرف ومطيرفي والشقيق . تعتمد حياة معظم سكانها على الزراعة المتنوعة .

الثروة المائية

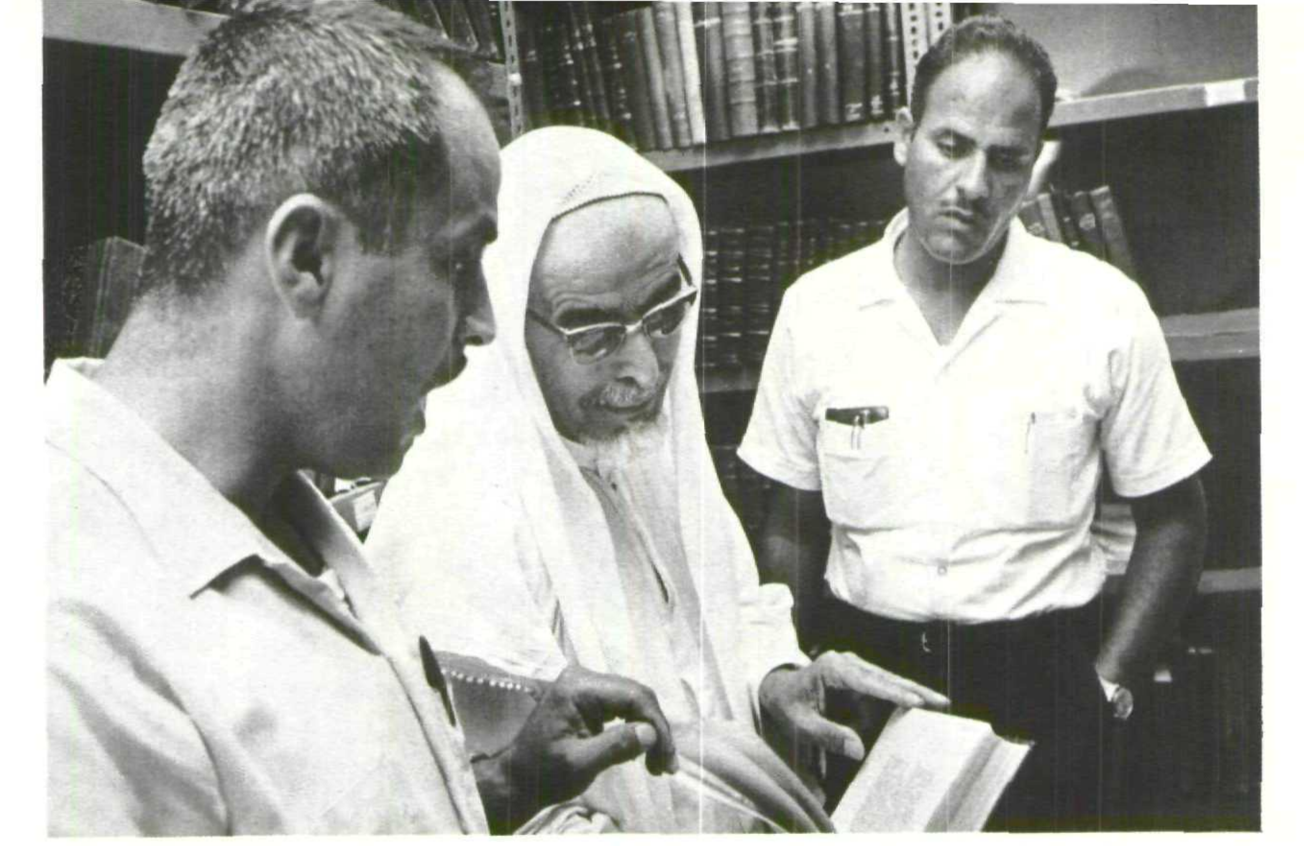
أرض الاحساء غنية بالمياه . وقد قدر «فيدال» تدفق الماء من جوفها بحوالي ١٥٠٠٠٠ جالون في الدقيقة يتدفق بعضها من آبار ارتوازية حفرت من قبل الأهلين ، والبعض الآخر ، وهو الجزء الأكبر منها ، ينبع من عيون طبيعية غزيرة . وتختلف الأقاويل حول تعداد عيون الاحساء . ففيدال يرى انها تزيد على الستين ، وان أربعا منها كبيرة جدا . أما الانصاري فيذكر في كتابه « تحفة المستفيد » أسماء احدى وتسعين عينا . في حين أن الآلوسي يقدر عدد الجداول في الاحساء « بزهاء ٨٠٠ جدول بين صغير وكبير . والأكثر منها ينبع من الرقعة الواقعة في الهفوف شرقا ، وبعضها ينبع من شرقي المبرز » . على انه يجب ألا يغرب عن البال انه يتفرع عن العين الواحدة في الاحساء جداول عديدة .

ومهما تضاربت الأقاويل حول مياه الاحساء فهناك حقيقة واحدة لا يرقى اليها الشك ، وهي ان المنطقة غنية بمياه عذبة غزيرة ، تكفي لري الأراضي المزروعة حاليا ، وما سيستصلح من أراض جديدة . وتقوم الحكومة حاليا بمشروع ضخم للري والصرف سيؤدي لدى انجازه الى استصلاح مساحات شاسعة من الأرض الزراعية في الاحساء .

وتنقسم عيون الاحساء الى قسمين رئيسيين ، القسم الجنوبي وهو المعروف باسم وادي المياه ، ومياه عيونه باردة عذبة ، والقسم الشمالي ومياه عيونه حارة . وأشهر عيون القسم الجنوبي : عين الخدود ، وهي أغزر عيون المنطقة ، ويتدفق منها في الدقيقة الواحدة حوالي ٣٠٠٠٠ جالون ويتفرع منها خمسة جداول ، وعين الحقل التي تتفرع مياهها في ستة جداول ، وعين التعاضيد ، وعين برابر المشهورة بعذوبة مياهها ، بالاضافة الى ٣٠ عينا أخرى متوسطة وصغيرة . أما أكبر عيون القسم الشمالي فهي : عين أم سبعة ، وسميت كذلك لأنها تتفرع في سبعة جداول ، العين الحارة المشهورة بمياهها الكبريتية الحارة ، وعين الجوهرية التي قيل انها كانت تسقي مدينة الاحساء القديمة ، وعين منصور ، وغيرها . وتوجد في غربي الهفوف عين تسمى « عين نجم » ، وهي تشتهر بمياهها المعدنية الحارة ، وقد وصفها

الإحساء غنية بعيون الماء الطبيعية التي يبلغ تعدادها نحو ٩٠ عينا ، وهذه هي عين « أم سبعة » ، وهي اكبر عيون القسم الشمالي من الاحساء .





الشيخ يوسف المبارك ، أمين المكتبة القطرية في الهفوف يري كاتب السطور بعض المخطوطات العربية القديمة الموجودة في المكتبة .

الشاعر بقوله :

يا عين نجم فقت آبار الحسا
بحرارة وبخار ماء يصعد

وبالاضافة الى عيون الاحساء التي قد يزيد عددها على التسعين عينا ، يوجد أكثر من ٤٠٠ بئر ارتوازية تستقى منها مزارع المنطقة وبساتينها .

الثروة الزراعية

واحة الاحساء ، منطقة زراعية ثرة معطاء ، اشتهرت منذ أقدم العصور بزراعة الأرز والحنطة والشعير والسمسم ، والفواكه كالنخيل والحمضيات والرمان والمشمش والخوخ والتين والعنب ، الى جانب أنواع عديدة من الخضر . ولعل منتوج الاحساء الرئيسي هو التمور ، وأشهرها «الخلاص» الذي يقول الشاعر عبد الله العبد القادر في لذة طعمه :

وغانية عصيت اللوم فيها
فما لي من هواها من مناص
فكم أجني لذيذا من هواها
أحب الي من رطب الخلاص

على ان الزراعة فيها بوجه عام قد تضاءلت في الربع الثاني من هذا القرن ، نتيجة لتحول أنظار الناس الى مجال الصناعة التي ظهرت في البلاد ، الا أنه في السنوات القليلة الماضية انبعثت الحركة الزراعية في المنطقة من جديد بفضل تشجيع وزارة الزراعة التي انشأت لها مديرية فيها ، تحرص على تقديم المساعدات والارشادات الفنية . وقد انشأت مزرعة للتجارب والارشاد مهمتها محاولة ايجاد أفضل الطرق الزراعية ، وادخال أنواع جديدة من الفاكهة والحبوب والخضر على المنطقة ، واجراء تجارب مستمرة لمكافحة الحشرات ، وتربية الدواجن والأبقار .

وعلاوة على ذلك قامت وزارة الزراعة خلال السنوات القليلة المنصرمة ، بمشاريع زراعية كبيرة ، منها مشروع الري والصرف ، ومشروع أبحاث زراعة الارز ، ومشروع تركيز الرمال .

مشروع الري والصرف

الغرض منه اقامة نظام حديث للري والصرف في المنطقة لزيادة الأراضي الصالحة للزراعة من ٩٠٠٠ هكتار الى حوالي ٢٠٠٠٠ هكتار ، بالاستفادة الكاملة من مياه الري الواردة من الينابيع والسيول والآبار الارتوازية بطرق اقتصادية سليمة ، وايجاد نظام تصريف سليم للمياه الفائضة .

ويقوم بتنفيذ مراحل هذا المشروع الضخم شركة ألمانية باشرت العمل فيه في العام المنصرم ، على أن يتم انجازه في غضون خمس سنوات . ويبلغ مجمل تكاليفه نحو ٢٠٨ ملايين ريال سعودي ، باستثناء التعويضات التي ستدفع لأصحاب الأراضي التي ستدخل ضمن المشروع . ويتضمن المشروع بناء حوالي ٣٠٠٠ كيلومتر من القنوات المبنية بالاسمنت المسلح ، وخزانات كبيرة تروي الأراضي المرتفعة . وقد أنجز منه حتى الآن حوالي ١٥ في المائة .

مشروع أبحاث الأرز

وهو برنامج تعاوني مشترك بين المملكة العربية السعودية وجمهورية الصين الوطنية مدته ثلاث سنوات ، يقوم الخبراء الصينيون خلالها بمحاولة زراعة أصناف جديدة مناسبة من الأرز في المنطقة تمتاز بجودة انتاجها بالنسبة للأنواع المحلية .

مشروع تركيز الرمال

ويعتبر من المشاريع الحيوية الضخمة التي قامت الحكومة بتنفيذها ، نظرا لما تسببه الرمال المتحركة من أخطار ، فقد كان معدل زحف الرمال ١٠ أمتار سنويا ، وربما يصل الى حوالي ٥٠ مترا في بعض الأحيان . وللحيلولة دون استفحال هذه المشكلة قامت الحكومة بتنفيذ هذا المشروع عن طريق تمهيد

قناة الصرف العريضة التي شقها مشروع الري والصرف الحيوي في الاحساء .

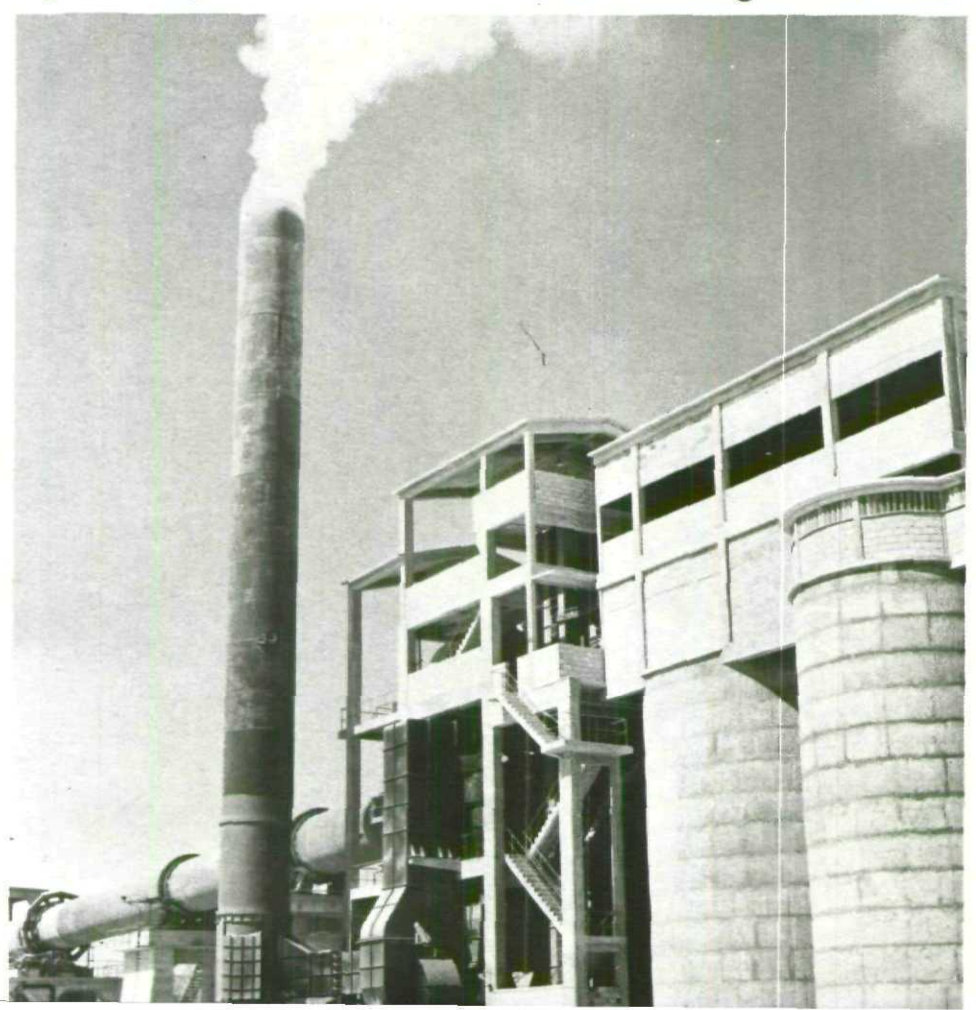
بعض القنوات المبنية بالاسمنت المسلح ، وهي احدى مراحل مشروع الري والصرف المهمة .

الرمال وتسويتها ، ثم تغطية سطحها بطبقة من الطمي للحيلولة دون جفاف مياه الري بسرعة . وبالتالي تشجيرها بعدد كبير من الأشجار الحرجية .



حانوت في السوق الشعبية ، حيث تتوفر المنتجات المحلية التي تغري السياح باقتنائها ، ولا سيما الدلة والمبخرة وجرن القهوة .

جانب من مصنع الاسمنت في الاحساء ، وهو من ركائز النهضة الصناعية في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية ، وينتج يوميا ٦٠٠ طن . تصوير : أحمد منتاخ



الحركة الثقافية والتعليمية

عرفت الاحساء بحدبها وتشجيعها للعلم والعلماء منذ أقدم العصور . ويقول المرحوم الشيخ حافظ وهبة في كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين) : — « واشتهرت الهفوف والمبرز بمركزهما العلمي والأدبي مدة طويلة فكانتا مقصدا لطلاب العلم من سائر أنحاء الخليج العربي . ولعلمائهما مركز في جميع بلدان الخليج ، يقابلون بالاجلال والترحيب ، ويكرمون بأحسن أنواع الاكرام أينما حلوا » .

والمعروف أن الاحساء أنجبت عددا من فحول الشعراء والأدباء أمثال طرفة بن العبد ، وخاله المتلمس ، والعائذ بن مثقب ، وشاش بن نهار ابن أسود الملقب بـ « الممزق العبدي » . كما يعد الجاحظ ، والشاعر والناقد الأمير جمال الدين ابن المقرب من أدباء الاحساء المرموقين .

واذا تصفحنا كتاب « شعراء هجر » لصاحبه عبد الفتاح محمد الحلو ، نجد في مقدمته أن هنالك أكثر من عائلة اشتهرت بالعلم في الاحساء . يقول المؤلف : « ويتقاسم هذا التراث شعراء من آل عمير ، وآل مبارك ، وآل الملا ، وآل عبد القادر ، وآل ماجد ، وآل غنام ، وآل مشرف ، وآل العلجي . »

وكان معظم العلماء يدرسون الطلاب في حلقات تعقد في المساجد والجوامع ، ثم ما لبث بعضهم أن ابتنوا لهم مدارس خاصة . وأقدم مدرسة دينية لا زالت قائمة في الهفوف هي مدرسة « الشلهوبية » التي أوقفها « ابن شلهوب » على يد الشيخ ابي بكر ابن محمد الملا ، ثم مدرسة « الملا » . وفي الهفوف حاليا أكثر من عشرين معهدا أو مدرسة دينية ، وفي المبرز نحو من عشر مدارس .

واذا تركنا المدارس الدينية جانبا وانتقلنا الى نشاطات وزارة المعارف الممثلة في مديرية تعليم البنين في الهفوف ورئاسة تعليم البنات ، لوجدنا أن في المنطقة ٥١ مدرسة ابتدائية للبنين ، بما في ذلك معهد النور واحدى عشرة مدرسة متوسطة وثانوية ، بما في ذلك المدرسة الثانوية المهنية . وتحتضن هذه المدارس في مجموعها ١٦٤٨٧ تلميذا ، ويقوم بالتدريس فيها ١١٣١ مدرسا .



« هيك بيطيرو العصافير . . » مقطع من انشودة يرددها ابناء روضة الاطفال في مركز التنمية الاجتماعية في الجفر .

أما مدارس البنات فيبلغ عددها ١٧ مدرسة ، بما في ذلك المدرسة المتوسطة ومعهد المعلمات ، وتضم نحو ٥ ٢٨٣ تلميذة يتلقين تعليمهن على يد ٢٧٥ مدرسة . ومن بين هذه المدارس ست مدارس ابتدائية ، ومدرستان متوسطتان للبنين ، ومدرستان ابتدائيتان للبنات ، بنتها أرامكو لأبناء موظفيها ، وتتحمل نفقة تشغيلها وصيانتها ، بيد أنها تتبع اداريا لمديريتي تعليم البنين والبنات في الدولة .

ويمتد نشاط ادارة تعليم البنين الى رعاية النشاط الاجتماعي والثقافي ، والكشفي ، والرياضي والفني فـي هذه المدارس ، بالاضافة الى اقامة معارض ومهرجانات سنوية .

الحركة الصناعية

لعل أشهر صناعة عرفت في الاحساء منذ زمن بعيد هي صناعــة العبي ، ومنهـا انتقلت الى دمشق وغيرها من الدول العربية ، وأكثر عائلة اشتهرت بهذه الصناعة هي آل هلال . ولا تزال الهفوف محتفظة بشهرتها في صناعة العبي حتى يومنا هذا ، ويتفنن صناع الاحساء في تطريز العبي وتقصيبها وزركشتها بـ « الزري » المذهبة والمفضفضة . وقد أقيم حديثا معملان آليان للعبي ، أحدهما لنسج الأقمشة والآخر لصناعة « الزري » . وبالاضافة الى صناعة العبي برزت في المنطقة صناعة التمور وتعليبها ، وصناعة الاسمنت .

مركز التنمية الاجتماعية

أقيم مركز للتنمية الاجتماعية في قرية الجفر ، يعمل على مساعدة سكانها وسكان تسع من القرى المجاورة لها صحيا واجتماعيا وثقافيا وزراعيا . وتتبع المركز أربع دور تدريبية للفتيات ، وجمعية خيرية ، وثلاثة مجالس قروية يتداول فيها أهالي القرى شؤونهم وأحوالهم .

ومن الناحية الزراعية فقد قدم المشتل التابع لمركز التنمية الاجتماعية للمزارعين حوالي نصف مليون شتلة خضار مجانا ، كما قام بتدريب ١٣٠ مزارعا على مكافحة الآفات الزراعية ووقايـــة المزروعات . ومن الناحية الصحية بلغ مجموع المراجعين الذين عالجهم مستوصف المركز مجانا خلال العام المنصرم ٥٢٨ ٤٠ مراجعا .

العناية الصحية

توجد في منطقة الاحساء مندوبية للصحة يتبع لها مستشفى مركزي وأحد عشر مستوصفا . وهذه المرافق الصحية هي : مستشفى الملك فيصل . ويحتوي على ١٦٥ سريرا ، وفيه ثمانية أطباء بينهم خمسة أخصائيين ، وواحد وعشرون ممرضا وممرضة . وهناك مستوصفات في كـــل من : الهفوف ، والمبرز ، والصالحية ، والرقيقة ، والعيون ، وسلوى ، والعمران الشمالية ، والجفر ، وفي كل منها طبيب وممرض وممرضة ومساعد صيدلي .

ومستوصفات أخرى في كل من : المنصورة ، وعين دار ، وحرض ، وهي عبارة عن وحدات صحية صغيرة في كل منها ممرض يقدم الاسعافات الأولية للأهلين ، أما الحالات المرضية فتحال الى الأطباء في المستشفى المركزي أو المستوصفات الأخرى .

وعلاوة عما سبق ، ففي المنطقة مراكز عامة لرعاية الطفولة والأمومة ، ولمكافحة الرمد والأمراض التناسلية ، الى جانب مستشفى أهلي عام يتسع لحوالي ٣٠ سريرا . وعدد من العيادات الخاصة تساهم أيضا في علاج المرضى والمصابين .

الآثار التاريخية

من القصور الأثرية الباقية في الاحساء قصر ابراهيم ، والجامع المشاد بصحنه في الهفوف ، وقصر صاهود في المبرز . ومن المساجد بقايا مسجد « جواثى » الذي أقيمت فيه ثانية جمعة فـــي الاسلام ، وكانت أول جمعة قد أقيمت في المدينة المنورة . والمسجد الجبري الذي يعود عهده الى القرن العاشر الهجري ، ومسجد الدبس . وفي المنطقة أيضا عدة قلاع وحصون حربية ، منها الحصن الذي بناه جلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود في أحد الجبال المحيطة بالهفوف .

وبعد ، هذه هي الاحساء ، أرض خيرة ، وماء وفير وأناس طيبون نشيطون ■

عصام العماد

يوم اليرموك (١)

للدكتور زكي المحاسني

فديتك هل ترى خفق البنود … هنالك وهي تدنو من بعيد
من الصحراء حشحثت المطايا … عطاشا هائمات بالورود
عليها من تجافيف البوادي … خلاق الرمل في تلك العهود
وللرمل التقي صفات روح … تجلت في العروبة والجدود
معلمة العراب أيا رمالا … لها حرية العيش الفريد
بعثت حمى العراك رجال حرب … مناهم رغبة اللهف الشهيد
اذا رقدوا فأعينهم نيام … وايقاظ العزائم والجهود
لهم في السلم اخلاق البرايا … وقد حسنت على حلم وجود
وفي الهيجا ضراغمة أباة … أرادوا المجد بالدم والحديد
تكاد بهم أساطير الليالي … تعجب من تهاويل الجنود
أما قذفوا من الصحراء تطوى … بهم أرض على الامل الشريد؟
يحثون المطي على شعاع … من النجم الخفي مدى السهود
تناءت دارهم فسعوا اليها … حنانا بالخيال الى الوليد
وللخود التي مسحت دموعا … على التوديع في الحزن المبيد
فيا سفر الجهاد أراك عيدا … لدى الابطال في اليوم السعيد
جوانحهم مليئات بتقوى … كأن بها مساجد للسجود
وأصوات بتكبير تعالى … تضاعفه الجبال مدى الردود
وللايمان سر هدى ونصر … فلم يحفل بجبار عنيد
يسوق الجحفل الجرار قدما … الى الجنات في الحتف الرغيد
كأني ناظر رمحا بصدر … يجرره طعين كالفهود
وفي يده الحسام يطيح رأسا … كأن دماءه دفق الصديد
أراوية الزمان ألا أعيدي … بسمع الدهر معركة الأسود
على الأردن نهر من تميم … يتيه بطارف بعد التليد
أصيري الحادثات رواة دهر … وقصي الحرب في اليوم المجيد
أرى « اليرموك » نهرا ليس يجري … سوى بدم من الجيش الطريد
تجمع حول ضفته زحوف … من الرومان تدلف بالحديد
و« هند بنت عتبة » في رعيل … من الأبطال مقبلة بغيد
أتت للحرب في درع وسيف … لتحتضن المنية في المهود
ورفقتها نساء عابدات … حضرن بلا دروع أو زرود
بأيديها الحجارة ماثلات … لتضرب في الجباه وفي الخدود
اذا فر الجبان رددن فيه … شجاعا أو كشيطان مريد
وبنت « الحارث بن هشام » كانت … لخلات الوقيعة كالسدود
وقد برز الحسان مزغردات … يهجن الجيش للنصر الوطيد
وغنين القتال على البوادي … ينابيع الدموع بلا سدود
أ « أم حكيم » عادت بالعوادي … فكيف هجرت حالية السعود
ذكرت بك الفوارس من قريش … ومن أوس وخزرج في حشود

«١» يقع يوم اليرموك في ١٢ رجب ١٥ هجرية «٢٠ أغسطس ٦٣٦ ميلادية».



تزاحم للطعان والتلاقي ... وجيش الروم بالعز المشيد
وراح « هرقل » يسأل قبل حرب ... عن العرباء في الوصف المفيد
فقيل له همو قوم أباة ... بواحدهم مقارعة العديد
اذا كروا حسبت الأرض تهوي ... وان برزوا فحتف في صعود
وان يدع المؤذن في صلاة ... أراحوا الحرب للخصم العنيد
نهلت « أبا عبيدة » من جنان ... صبوت لها على طيف الخلود
فقدت عرمرما يجري ألوفا ... يصيح لدى الفدا يا نفس جودي
تلقاهم « هرقل » بضعف ضعف ... وما شرك كأيمان سديد
على « اليرموك » حمحمة السرايا ... بموسيقى الملاحم كالرعود
ولحن الحرب في بوق وقرع ... تلمس من بزنطة كل جيد
رأيت « الأشعث بن القيس » يجري ... بملجمة تتيه على المجود
فيا ساحا على « اليرموك » قولي ... ووصفك في مغازينا أعيدي
اذا خدرت بنا الأعصاب يوما ... وجدنا العزم يحيا من جديد
تعاقبت الحروب على فتوح ... لقد نسجت بدامية البرود
أ « خالد » كنت امدادا ورفدا ... لجيش في الشآم بلا سنود
ولما أن حللت غلا وأرغى ... وصلصلت الزمازم في البنود
خطبت فهجت كل دم وسيف ... وأخرجت القلوب من الجلود
وحمحمت العتاق الدهم سمعا ... ولو فهمت لريعت من كديد
وعبأت الجيوش بخير حذق ... كراديسا تزاحم في مزيد
فخاض بها « ابن وقاص » بزأر ... يطاعن كل رومي جليد
أ « عكرمة مع القعقاع » هبا ... بوقاد من الرجز العتيد
أراجيز كموسيقى حروب ... تزج الصدر في قرع شديد
ترددها « بحوران » جبال ... على « واقوصة » الوادي المبيد
وجد الطعن في وهم المنايا ... فبايع مسلموها بالوريد
وثبتهم اله ذو نبي ... أتاه النصر في غير الصدود
وجالت نسوة كن الشوادي ... وكن بلاسما فوق الضمود
وكانت وقعة جلت وعزت ... بنصر الله في يوم الوعود
تردى « الروم » فيها في فجاج ... وراحوا خاسئين بكل بيد
على « هركول » منها ذل دهر ... يرافقه الى نشر اللحود
ووافت « خالدا » والحرب تزجي ... ألوكة عزله يوم الصمود
فكاتمها الى أن حان نصر ... جناه « أبو عبيدة » بالسديد
وسلمه الامارة طوع رأي ... أتاه من الخليفة بالرشيد
« أبا بكر » رعيت الحرب ندبا ... أيا صديق من نبع المهود
فان « عمر » اتاها عند فوز ... فقد لقيت به عز المريد
سل الدنيا « حذيفة » ما دهاها ... أتسمع ما يدوي في الجرود
لصوتك في مدى « اليرموك » زجل ... أطار من العيون هوى الهجود
فقل يا ملحمات العرب : ردي ... الى سمع الزمان صدى نشيدي



الخطأ

طريق الى الصواب أحيانا

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

ان القارىء الذي يطالع هذا العنوان لن يسعه سوى أن يتساءل قائلا : « ولكن ، لماذا لا يكون الصواب نفسه هو الطريق المؤدي الى الصواب ؟ ألسنا نلاحظ في حياتنا العادية أن من شأن النصر أن يقود الى نصر ، وأن من طبيعة النجاح أن يفضي الى نجاح ؟ ألا تدلنا تجربتنا الخاصة على أن المال يجلب المال ، والحظ يجذب الحظ ؟ واذن فلماذا يأبى كاتب هذه السطور الا أن يجعل من الخطأ طريقا الى الصواب ؟ » . وردنا على هذا التساؤل أن الصواب حقا طريق الى الصواب : فانه لا شيء ينجح كالنجاح ، ولا شيء ينتصر في المعركة مثل النصر ! ونحن نعلم جميعا أن مواصلة السير في طريق سبق للمرء انتهاجه أمر سهل قد لا يحتاج الى كبير عناء . فليس من المتعذر على المنتصر الذي انتشى بحلاوة انتصاره أن يمضي قدما على طريق النصر ، وليس من المستحيل على الناجح الذي رفع النجاح من روحه المعنوية أن يشق طريقه بثبات نحو تحقيق المزيد من النجاح .

ولكن ، مهلا ! فلو كان النجاح وحده هو الذي يقود الى النجاح ، أو لو كان الانتصار وحده هو الذي يؤدي الى انتصار ، لظل الناجح ناجحا باستمرار ، ولبقي الفاشل فاشلا الى أبد الدهر . ولكن التاريخ يؤكد لنا أن الفشل قد يكون أحسن درس يمكن أن يفيد منه الراغب حقا في النجاح ، على شرط أن يعرف كيف يتخذ من اليأس نفسه سلما يرقى عن طريقه الى ما يصبو اليه من آمال .

وهنا قد يقال : « ولكن ، يا عجبا لهذا النجاح الذي لا يتولد الا عن خصمه اللدود ؟ هل يمكن أن يتولد الخير عن الشر ، أو أن ينبت الأمل من صلب اليأس ؟ اذن فما بالنا نتوهم أن الخطأ يمكن أن يكون طريقا الى الصواب ؟ » . والرد على ذلك هو أنه ما دام البشر يحيون في عالم زماني يسوده الصراع والتناقض ، فسيظل الوجود الانساني مسرحا خصيبا لهذا التعارض الحادّ الأليم بين الخير والشر ، بين الصواب والخطأ ، بين النجاح والفشل ... الخ .

من المستحيل علينا أن نتصور عالما بشريا قد امحى منه الشر تماما ، وزال منه الخطأ عن بكرة أبيه ، واختفى فيه الفشل اختفاء تاما مطلقا ، وذلك لأن الشر نفسه هو المثير الدائم للحياة الروحية ، والحياة الروحية هي كفاح وقهر للشر ، وعمل متواصل من أجل الظفر بالخير . ولو أمكن أن يكون ثمة ضمير انساني لم يختبر يوما تجربة الشر ، ولم يعان لحظة واحدة مرارة الفشل ، لما كان هناك شيء يمكن تسميته باسم الخير بالنسبة الى مثل هذا الضمير ، ولو استوت في أعيننا كل ضروب الوجود أو كل أساليب الحياة ، لما قامت للقيم أية قائمة ، ولما كان ثمة موضع للتفرقة بين خير وشر ، أو بين صواب وخطأ . و « القيم » لا تقاس الا بالوعي البشري الذي يقابل بينها ، ويحكم عليها فيقبلها أو يرفضها . وبالمثل ، لا يمكن أن يكون الصواب الا مجرد قطب واحد بين قطبين اثنين تتأرجح بينهما الحياة الانسانية ، الا وهما قطبا الصواب والخطأ ، أو الخير والشر .. الخ . وما دام من المستحيل أن ينمحي الخطأ تماما من الوجود البشري ، فسيظل « الخطأ » سلما يتخذه العاملون سبيلا لهم الى بلوغ الصواب ، وسيظل الشر تجربة أليمة يعانيها الخيرون في سعيهم نحو اكتساب الخير .

وحين يرجع المرء الى تاريخ الفلسفة الغربية منذ أكثر من خمسة عشر قرنا ، فانه يلتقي بعبارة قالها « أوغسطين » وهي : « أنا أخطيء ، فأنا اذن موجود . » ومهما كان من أمر المعنى الذي قصد اليه «أوغسطين» من وراء هذه العبارة ، فان من المؤكد أن الخطأ مظهر من مظاهر التفكير ، وأن التفكير قرينة من قرائن الوجود . ولكن الخطأ أيضا ظاهرة مصاحبة للعمل ، لأن الذين يخطئون هم أولئك الذين يعملون ، وأما الذين لا يعملون فانهم لا يخطئون ، ولكنهم أيضا لا يصيبون . ويطلق علماء النفس على المرتابين ، والمترددين اسم « مرضى الفعل » . وهؤلاء يحرصون على الطمأنينة ، ويسعون وراء السكينة ، فهم يرفضون العمل لأنه ينطوي بالضرورة على ضرب من المخاطرة . وهم اذا كانوا يخشون الفعل ، فما ذلك الا لأنهم يخافون أن يؤدي بهم الى الفشل . وهكذا نراهم يؤثرون البقاء في قواقعهم الآمنة ، على مجابهة المصاعب والمشاق في معترك الحياة ، والمرء حين يخرج الى ميدان الحياة الفسيح يكون قد آلى على نفسه عندئذ أن يتقبل كل ما يترتب على نشاطه من نتائج ، سواء أكان ذلك بالنجاح أم بالفشل وتبعا لذلك ، فانه يكون قد ارتضى لنفسه أن يقترن اسمه بهذا الفعل أو ذاك .

انّ الخطأ مظهر من مظاهر نشاط المرء الذي لا يستطيع أن يتعلم الا عن طريق المحاولة والخطأ . وما دام المرء أعجز من أن يحصر سلفا الاحتمالات كافة ، فسيظل الفعل هو محكمه الأوحد لاختبار صحة أفكاره ، والتثبّت

من صدق فروضه . وان الانسان ليحاول ، ويخطيء لكي يحصل ويتعلّم ، أو لكي يصيب وينجح في خاتمة المطاف . والطفل نفسه لا يكاد يخرج عن قانون المحاولة والخطأ لأنه يشعر ضمنا بأن هذا هو سبيله الأوحد الى التعلم . ونحن جميعا — صغارا وكبارا — ندرك أن الخطأ مرحلة ضرورية لا بد من أن نجتازها في طريقنا الى الصواب ، لأننا نفهم أن الفشل خبرة انسانية كثيرا ما تكون بمثابة المرحلة التمهيدية التي لا غنى عنها لبلوغ النجاح . فهناك عباقرة يدينون بنجاحهم الى خطأ وقعوا فيه ، أو عائق وقف حجر عثرة يوما في سبيل تقدمهم ، أو مشكلة مستعصية اعترضت طريقهم . وهم يتذكرون — بسرور — ذلك الخطأ أو تلك المشكلة ، لأنهم يعلمون أن ذلك الخطأ كان سبيلهم الى ما حققوه من نجاح . والانسان الذي يخطيء ، يضيف الى سلسلة خبراته المعاشة تجربة بشرية أصيلة قد تكون هي الكفيلة بتغيير مجرى حياته .

والصواب الذي يجيء بعد خطأ يكون أحيانا أقوى وأمتن من الصواب الذي يجيء بعد صواب . والسبب في ذلك أن التجارب الشاقة التي تقترن بمثل هذا الصواب لا بد من أن تعمل على زيادة صلابته ، وتوطيد أركانه . وحين يكون الصواب الذي يحصل عليه المرء صوابا عسيرا قد دفع ثمنه غاليا ، فانه لا يمكن أن يكون على استعداد للتخلي عنه بسهولة ، بل هو لن يكون قادرا أن يتجاهله أو أن يتناساه . فالنفس التي عركت الشر ، قد تزداد تمسّكا بالخير كما أن النفس التي عانت الخطأ ، قد تكون أقدر على الدفاع عن الصواب .

وليس العيب في أن يخطيء المرء ، بل في أن يستمر في خطئه ، والخطر كل الخطر في أن يعجز عن الافادة منه . وقد لا تختلف الشعوب — من هذه الناحية — عن الأفراد ، فالشعب الناجح هو ذلك الذي يتخذ من أخطائه وعثراته عبرا حية يتصرّف على ضوئها في المستقبل . ولا يمكن أن تكون حياة الأفراد أو الشعوب سلسلة مستمرة من الأخطاء ، والا كانت مجرد محاولات لا تعقبها خبرات ، ومقدمات لا تتلوها نتائج ، وعثرات لا تترتب عليها ثمرات ، ولكن الأفراد والشعوب « كائنات حية » ، وتنشد التطور ، فهي لا تملك الركون الى السلبية المحضة ، أو الاستكانة الى الفشل المطلق ، ومن ثم فانها لا بد من أن تجد لنفسها سبيلا للنهوض بعد كبوة ، والقيام بعد عثرة . والفرد الذي ينفض عن نفسه غبار الفشل شخص ناضج يعرف أن نصف النجاح هو الاعتراف بالخطأ ، ونصفه الباقي هو العمل على الافادة من الخطأ في سبيل الوصول الى النجاح .

وما أحرانا اليوم بأن نعاود التفكير في مشكلة الصواب والخطأ على ضوء هذا الفهم الواعي لموقف الكائن البشري . وما دامت تجارب الألم والشر ، والخطأ والفشل مجرد خبرات موقوتة ، لا بد للبشرية من العمل باستمرار على تجاوزها ، فسيبقى الخطأ دائما مجرد طريق الى الصواب ، وسيظل الشر مجرد مرحلة عابرة تجتازها الانسانية في سبيلها الى الخير . وليس تاريخ الحضارة البشرية سوى تاريخ الاخطـاء التي نجحت الانسانية في تصحيحها ، أو تاريخ العقبات التي استطاع الانسان أن يتغلب عليها . وبين هذه المسافة المعنوية التي تفصل الخطأ عن الصواب ، ستظل الكائنات البشرية تعمل جاهدة في سبيل تحقيق ضرب من التوازن بين الكائن الواقعي بنقصه وضعفه ، والكائن المثالي بكماله وسموه . وأما الخطأ فسيظل هو المحرك الدائم لدراما الحياة البشرية ، بما فيها من كفاح مستمر ضد الشر ، ومجادلة متواصلة لتحقيق الخير . ولولا الشر والألم والخطأ ، لظلت الحياة الانسانية مجرد سلسلة متراخية من اللحظات المتكررة الخاوية ، بدلا من أن تكون سلسلة ديناميكية من الكفاح المستمر سعيا وراء تحصيل الخير بالقضاء على الشر ، وأملا في بلوغ الصواب على أشلاء الخطأ ■

طرائف

دالة عدم الاصغاء

كان الزوج منهمكا في قراءة جريدته ، فقالت له زوجته غاضبة : لاداعي لان تتمتم قائلا نعم . . نعم . . فلقد توقفت عن الكلام قبل خمس دقائق .



تذمر العريس من طبيخ عروسه ، فقالت غاضبة : وهل تظن أنني أنا الاخرى لاأفتقد الوجبات اللذيذة التي كانت تعدها والدتي .



الاب : لماذا تأخرت في المدرسة الى مابعد انصراف زملائك؟

الابن : طلب منا المعلم أن نكتب موضوعا عن الكسل فتكاسلت ولم اكتب حرفا ، وتكاسلت فلم أقدم ورقتي الخالية حتى سحبت مني بعد أن انصرف جميع التلاميذ .



كان الزوج يهم بتعليق لوحة زيتية في احدى الغرف ، فقالت له زوجته : سوف تجد المطرقة والمسامير في خزانة المطبخ ، والقطن والمطهر والرباطات في خزانة الادوية في الحمام .



سئلت سيدة عن السبب الذي يجعلها لاتأخذ الاقراص المهدئة التي وصفها لها الطبيب

فقالت : عندما تناولت هذه الاقراص آخر مرة ، وجدت نفسي أتصرف تصرفا وديا حيال الجارات اللواتي كنت أرفض حتى الحديث معهن .



اعجبت الام بالاسورة الجديدة التي اشتراها زوج ابنتها لزوجته ، فقالت لها : مبروك . ماالمناسبة؟ اهي ذكرى زواجكما؟

الابنة : كلا ، صلح بعد مخاصمة .



أليسار

بقلم الاستاذ محمد العريضي

فجر يوم ، من أيام الربيع النديّة الشذية ، أفاقت مدينة « صور » الرابضة على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، على خفق أشرعة بيض ميّادة ، متلألئة على متن أسطول عظيم نظيم ، في ألف وثلاثمئة سفينة ، ملأى بالرجال والزاد والعتاد ، وقد غطّى صفحة الأزرق الجيّاش ، فحجب عنه خيوط الشمس المتكسرة عليه ، المتوهّجة عسجدا ولجينا ، مما زاد في طلعة الفجر روعة وبهجة ورواء .

وبينا أبصار الناس تشخص بالقافلة المديدة المتهادية ، وكأنها قطع السحاب تلف بمئزرها المهفهف ، وعهنها المنفوش بسطة اليمّ ، في اغفاءة الصبح الوضيء ، يطلّ مليك المدينة ، من شرفة سامقة من شرفات قصره المنيف ، ليشارك الناس دهشتهم في الأمر الجلل ، والرحيل المفاجيء لتلك المجموعة الهائلة من السفن ، وقد خلت منها مرافيء المدينة ، ولم يبق فيها الا القوارب الصغيرة ، والسفن القديمة ، غير الصالحة للمسافات البعيدة ، والرحلات الطويلة .

ويسرع المليك عائدا الى حجرته ، فيرتدي بزّته ، ويدعو اليه وزراء المملكة ، لبحث الحالة الطارئة . واذا بهم يواجهون أمرا بالغ الخطورة ، ينبيء برحيل الملكة « اليسار » شقيقة المليك « بيقماليون » الى جهة غير معلومة ، وقد عقد لها على ذلك الأسطول النادر المثال ، وتبعها القسم الأوفر من أشراف المملكة ، وأرباب الفكر والفن والصناعة فيها ، كما نقلت معها ثروة من النقدين الذهبي والفضي والمجوهرات الثمينة ، التي لا تقدر بمال ، ولا تقوّم بقيمة .

يقول المؤرخون القدامى ان الموجات البشرية الأولى ، التي نزحت من شبه الجزيرة العربية الى شرقي البحر الأبيض المتوسط ، في تاريخ يعود الى الفين وثلاثمائة سنة قبل الميلاد ، كانت قد أقامت لها مملكة واسعة الأطراف ، راقية المناهج ، في تلك البقعة من الأرض ، وجعلت من « صور » المدينة اللبنانية حاليا ، عاصمة للمملكة ، التي اشتهرت بأنها ركيزة من ركائز المدنيّة العالمية الأولى ، كما اشتهرت بصناعة السفن ونقل بذور المعرفة الى بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وغيرها ، والاتجار معها على سويّة رفيعه . كما يقولون ان أبناء « صور » أقاموا الأماكن الملائمة ، والقواعد الحصينة لاقتصادهم وتجارتهم على طول الشاطيء المتوسطي ، وأنّهم سيطروا مدة ثمانمائة سنة على مضيق « ملقرت » – جبل طارق حاليا – وبلغوا الجزر البريطانية في ذلك الحين ، ووجدوا فيها معادن التنك والقصدير . وسواء سمّي أبناء تلك المدينة ، وقتئذ ، بالكنعانيين أم الفينيقيين ، فان الرأي الغالب والثابت لدى المؤرخين بأنهم من أبناء شبه الجزيرة العربية ، التي طالما تدفقت بموجاتها البشرية المتتالية ، فسطّرت في تاريخ الانسانية مآثر خالدة .

اثبت معظم المؤرخين ان « موتن » ملك صور لتسعمئة سنة قبل الميلاد ، كان قد أوصى قبل وفاته بأن تشترك ابنته « اليسار » في حكم المملكة مع أخيها ولي العهد « بيقماليون » لما توسّمه فيها من ذكاء وفطنة ومناقب خلقية نادرة . وبعد وفاة « موتن » شق على نجله أن تشاركه شقيقته في الحكم ، وعدّ هذا الأمر انتقاصا من رجولته وكفاءته ، فأخذ يكيد لها لابعادها عن سدة الملك . ففطنت « اليسار » لهذا وتزوجت من « زيكار » رئيس الكهنة ، وخادم الهيكل لما له من نفوذ كبير في المملكة ، ولما يمتلكه من ثروة مادية هائلة ، من حقول ، وقصور ، وسفن ، وجواهر ، وذهب ، وفضة . وقد لجأت الى هذا الزواج لتؤمّن لنفسها الحماية الكافية من أخيها . غير أن أخاها ، الذي تظاهر بالرضوخ فترة من الزمن ، ما لبث أن دبر مكيدة لزوجها « زيكار » فوجد مقتولا في بيته ، وبذلك أفسد على « اليسار » خطتها ، وأبعدها عن شؤون المملكة . ولكنها لم تهن ولم تضعف ، فدفعت بها مطامحها الواسعة ، الى أن هيأت تلك الرحلة البحرية التاريخية ، وخرجت بذلك الأسطول الذي يحمل ثروة زوجها « زيكار » في أكياس مكدسة ، بالاضافة الى الأشراف ورجال المال والاقتصاد والصناعة ، لتبني لها مملكة جديدة على الشاطيء الافريقي ، الى جانب المدن والمراكز المتعددة التي كان الصوريون قد أنشأوها على ذلك الشاطيء ، وغيره من شواطيء البحر الأبيض المتوسط .

غير ان هذا القول ، الذي أجمع عليه معظم المؤرخين ، لا يخلو من أن يكون قد خالفه بعضهم من حيث الجوهر لا الشكل . فهؤلاء لم ينسبوا الى « اليسار » بأنها قد هربت من جور أخيها ومكائده ، لتبني لها مملكة جديدة . بل ينسبون اليها ، وهي المرأة الواسعة الآفاق ، البعيدة المرامي ، انها قد خطّطت ، مع رجالات المملكة ، لانشاء مملكة حديثة على الشاطيء الأفريقي ، بعيدة الى الغرب عن مملكة « صور » ، لأسباب عدة ، منها : الغزو الآشوري الذي

اجتاح المنطقة الشرقية ، وأرغم صوراً على الخضوع لمشيئته ، فترة من الزمن . ومنها الآفاق الحضارية والاقتصادية التي كان أبناء صور يتطلّعون اليها ، بنفوسهم الطامحة وآمالهم الكبيرة . ولهذا فقد أعدّت « اليسار » العدة لتلك الرحلة الفريدة من نوعها ، وهيأت لها جميع المستلزمات والضرورات والمقومات ، فسارت تمخر عباب الأزرق الطامي ، وكأني بها لم تنس لـدى وداعها صورا ولسان حالها يقول :

وتلفّتت عيني فمـذ خفيت
عـني الطلـول تلفّت القلـب

ألقت « اليسار » مراسي أسطولها الكبير ، أولا ، على شواطيء قبرص ، فاستقبلها السكان مهللين هاتفين للملكة النبيلة . وعرض عليها أحد الكهان ، أن ينضم اليها هو واتباعه في هذه الرحلة ، فقبلت العرض . ثم اختارت لها ثمانين من بنات قبرص ، فضمّتهن بدورهنّ الى القافلة ، لتزوجهن لرجالها العازبين المرافقين لها . ثم أقلع الأسطول باتجاه الغرب ، على محاذاة الشاطيء الأفريقي ، وما زال يتهادى على صفحة الماء ، حتى ألقى مراسيه على الشاطيء التونسي في خليج استراتيجي ، عرف فيما بعد بخليج قرطاجة ، فاستقبلها السكان بالترحاب والأهازيج ، لأنهم كانوا يعرفون مكانة الملكة ، ويعرفون ما ينقله لهم أبناء صور من خير ومعرفة ، فألفوا فيهم خير رسل للحضارة الانسانية المثلى .

هُنالِكَ في شبه جزيرة منيعة الأطراف ، تقع بين رأس « حرموش » ورأس « أبولون » ، وهما يعرفان اليوم برأس « بون » ورأس « فارينا » ، على بعد عشرين كيلومترا من مدينة تونس ، شرعت « اليسار » في بناء مدينة قرطاجة صيف عام ثمانمئة وأربعة عشر قبل الميلاد ، في رقعة مختارة من الأرض . وقد زعم بعض المؤرخين المتجنّين على الملكـة « الصورية » انها عمدت الى حيلة لشراء الأرض من أصحابها ، فاشترت منهم مساحة جلد ثور ، ثم أمرت بتقطيع ذلك الجلد الى خيطان رفيعة ، فامتد الى مساحة شاسعة من الأرض ، تملّكتها « اليسار » ، وبنت عليها مدينتها التاريخية الشهيرة .

ما كادت « اليسار » تحطّ رحالها على الشاطيء الأفريقي ، وتبدأ في بناء المدينة الجديدة ، حتى ذاعت أنباؤها في الجزء الشمالي من القارة بأسرها . وكان أن ارتاع البربر لهذا النزول في جيرتهم ، وأدركوا الأهمية البالغة التي تترتّب على قيام دولة حديثة متفوّقة بجوارهم . وما أن ارتفعت الأسوار المنيعة حول المدينة من الخارج ، والقصور الفخمة من الداخل ، حتى أوجس « يابون » ملك البربر خيفة من هذه العظمة ، وعلم أن تلك المدينة لن تكتفي بالبقعة المحدودة التي بنيت عليها ، بل ستبسط سيطرتها على ما حولها ، وتخضع البلدان المجاورة لها لسلطانها . لهذا فقد ركب « يابون » في جيش عرمرم من فرسان البربر الأشداء ، وقصد المدينة ، متحرشا منذرا بالحرب والويل والثبور . ولكنه ما كاد يرى « اليسار » بوقارها واتزانها وجمالها ، وهي ما زالت في ميعة الصبّا ، حتى فتّ في عضده ، وشعر بقلبه ينبض بخفقات الحب والهيام . فنزل عن جواده ودنا منها ، فاستقبلته أحسن استقبال ، ووزّعت الهدايا على أمراء جيشه . ثم ما لبث ان عاد ، وللحب في قلبه أوار ، وزالت من مخيلته المخاطر التي تصوّرها ، وخال أن الدنيا لن تكون دنيا لديه ، الا اذا اتخذ « اليسار » زوجة له ، وجعلها ملكة مطلقة التصرف في تلك البلاد . ولوى عنان جواده ميمّما شطر بلاده ، ومن ورائه ذلك الجيش القوي الجرار ، ومن أمامه أمانيّ عذاب ، وآمال جسام ، ما كانت لتخطر له ببال قبل ذلك اليوم المشرق الوضاء .

عَـادَ « يابون » ، وفي النفس حاجات ، وأي حاجات . وقد تضاءلت في نظره الأموال التي كان يأمل بالحصول عليها ، ثمنا للأرض التي تقوم عليها مدينة « قرطاجة » ، وبات قلق البال ، كثير الهواجس ، ينتظر بفارغ الصبر ردّ الزيارة ، بعد تلك المقابلـة الخاطفة ، التي تحوّلت فورا عن مواقع القتال الى مواقع الغرام .

بعد أيام من عودة « يابون » ملك البربر الى بلاده ، دعـت « اليسار » عشرة مـن رجالها الحكماء ، وأوفدتهم اليه ، لكي يقفوا على حقيقة مطالبه . وما ان وصلوا اليه وأبلغوه بمهمتهم ، حتى فاجأهم بقوله : « لا أريد منكم ذهبا ولا فضة ، ولا خزفا ولا أرجوانا ، لي عندكم مطلب وحيد لا محيد عنه البتة . اني أريد « اليسار » زوجة لي لأجعلها ملكة على هذه البلاد ، فان قبلت بهذا هان كلّ عسير ، وان لم تقبل ، فدونكم والحرب . انني سأشنّها عليكم حرب فناء ضارية ، فاما أنا واما أنتم . »

عاد الوفد القرطاجي الى « اليسار » ، وكأن الطير على رأسه ، فلم يكن هنالك من مجال للأخذ والرد مع الملك البربري لمتصلّب ،

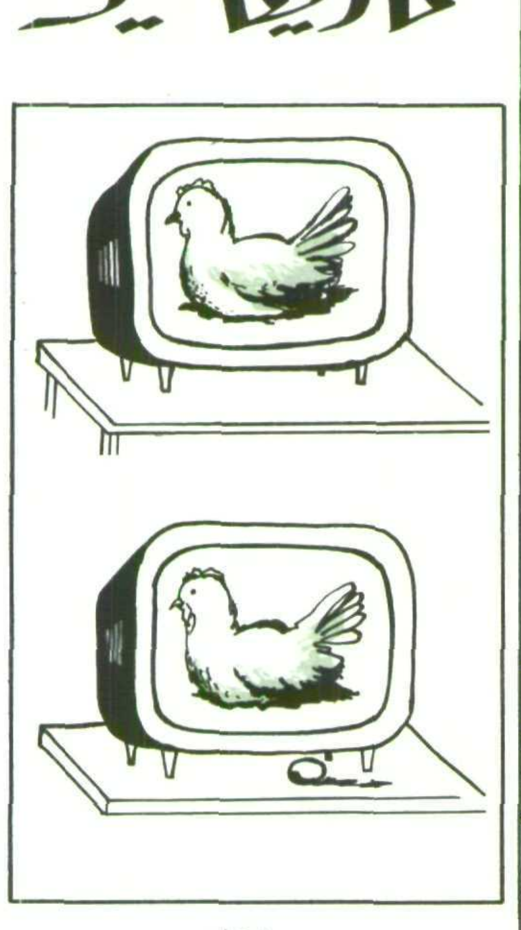


الوهان . وحار الجميع في أمرهم ، وكيف يفاتحون الملكة بهذا المطلب .. غير أن كبيرهم أفضى الى «اليسار» بتفاصيل المقابلة. فأطرقت في الأرض طويلا ، وهي تفكّر في الأمر ، وأدركت ان لا قبل لها بالحرب ، وانها اذا استعرت فستقضي على قرطاجة في المهد ، كما تقضي على مطامح شعبها العظيم . ورفعت رأسها ، وقالت : « اذن ، أحملوا اليه جوابي بالموافقة ، شرط أن يتم الزواج بعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ ، وشرط أن يتعهد « يابون » باحترام قرطاجة وبأنه لن يمسها بسوء الى الأبد . »

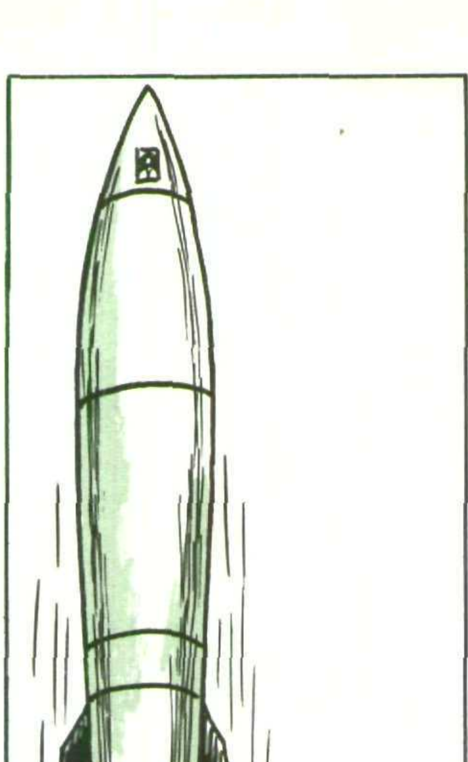
نزل الجواب على قلب « يابون » بردا وسلاما . وبات يعدّ الأيام بالساعات ، بينما كان القرطاجيون يجدّون في بناء مدينتهم ، ويشمخون بمدا ميكها الى العلاء . وفي اليوم الذي انقضت فيه مهلة الأشهر الثلاثة ، أقبل « يابون » بجيش لجب غطّى السهول والتلال المحيطة « بقرطاجة » . ومشت اليه « اليسار » تتهادى بين وصيفاتها ، ومن ورائها كبار رجال الحاشية ، فالتقت بملك البربر ، وعقدت معه عهدا مبرما على الزواج ، شرط احترام قرطاجة مدى الدهر . ثم استأذنته أن تذبح الذبائح ، فأذن لها بذلك . وما ان أوقدت النيران ، حتى اعتلت « اليسار » المنبر ، وقالت : « أيها القرطاجيون حافظوا على مدينتكم ، وأنت أيها الملك العظيم حافظ على عهدك بشرف . » ثم أنتضت من صدرها خنجرا بسرعة كالبرق ، وأغمدته في قلبها ، وارتمت في النار ، باسمة الثغر ، آمنة مطمئنة . فأجفل « يابون » وجميع المشاهدين للمفاجأة الرهيبة . وللحال نهض من مكانه ، وأمر جيشه بالرحيل فورا ، مدركا أن قوما نساؤهم في هذه الذّروة لن يقهروا . وكان شريفا في عهده ، فلم يؤذ قرطاجة ولم يمسها بسوء الى الأبد .

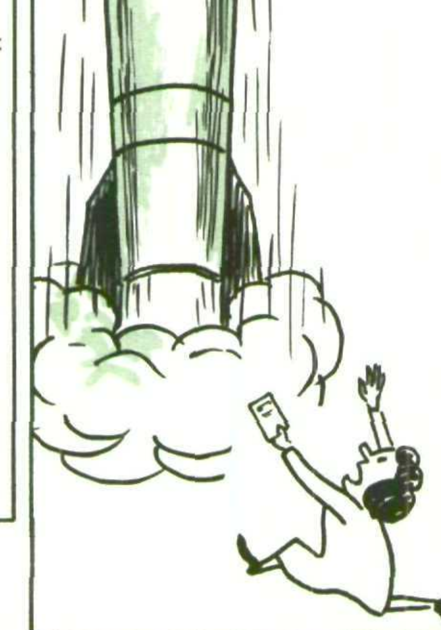
هكذا أنشئت مدينة قرطاجة ، فسادت حقبة طويلة من الزمن . وكان منها العظماء ، أمثال « هملقار » ، و « هنيبعل » ، وغيرهما . وكانت حروب قرطاجة مع الاغريق ، وكانت الحروب « الفونية » الثلاثة بين قرطاجة وروما وانتهت بعد صراع مرير — كما هو معروف — بانتصار روما . وانتهت قرطاجة بعد تسعمئة وستين عاما من انشائها . وانتهت روما من بعدها ، ولكن مدنيّة صور وأمجاد قرطاجة لمّا تنته . فهي على الدهر مبعث فخر واعتزاز ، واكبار واعتبار ■

كاريكاتير

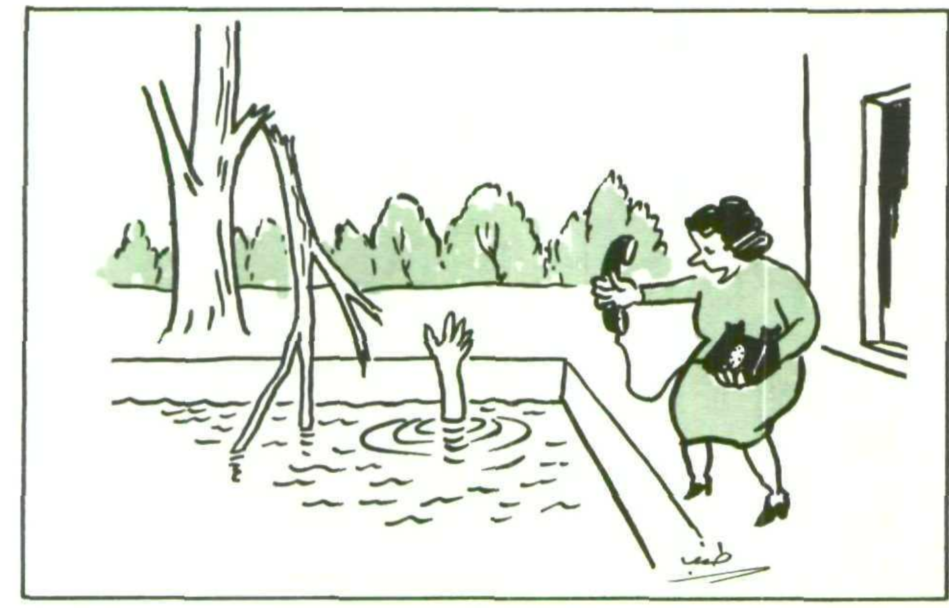


بدون تعليق ....





نسيت جواز سفرك ياعزيزي ...



هذه مخابره لك يا عزيزي ...








الحركة الأدبية في العالم العربي

• أصدر العلامة الأستاذ محمد عبد الله عنان كتاب « لسان الدين بن الخطيب – حياته وتراثه الفكري » تناول فيه حياة هذا الوزير الشاعر الأديب وأحاط بألوان نشاطه ، وعرف بالمخطوط من آثاره ، كما أصدر كتاب « الاحاطة في أخبار غرناطة » الذي سبق للأستاذ عنان أن حقق جزءه الأول .

• أصدر الباحث اللبناني الأستاذ الشيخ طه الولي كتابا كبيرا عن « عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الاسلام وامام أهل الشام » حصر فيه كل ما كتب عن هذا الامام الكبير ، وأضاف اليه من تحقيقه الخاص ودراساته وملاحظاته الشخصية ما أبرز الصورة الكاملة للأوزاعي .

• من كتب التراجم والسير التي صدرت أخيرا « محمد نبي البر » عن سيرة ابن هشام ، وقد حققه الأستاذ ابراهيم الابياري ، و « عبد الوهاب عزام في حياته وآثاره الأدبية » للدكتور زكي المحاسني ، و « عبد الكريم الخطابي » للدكتور جلال يحيى ، و « الكعبي شاعر الثأر » للأستاذ نعمة هادي الساعدي ، و « بلزاك – حياته وأدبه » للدكتور أنور لوقا ، وطبعة ثانية من « سلامة موسى المفكر والانسان » للأستاذ محمود الشرقاوي ، و « داود باشا والي بغداد » للدكتور عبد العزيز سليمان نوار .

• تعدّ الدكتورة نعمات أحمد فؤاد دراسة عن النزعة العربية عند شوقي تجلو فيها هذا الجانب من حياته وشعره .

• أصدر المؤرخ الكبير الأستاذ محمد جميل بيهم كتابا في سلسلة مذكراته الخاصة عنوانه « العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨–١٩٢٢ » روى فيه أحداث هذه الفترة وما عاصره وعرفه من أخبارها ورجالها وما كان له من دور فيها .

• من دواوين الشعر التي ظهرت مؤخرا « ديوان ليلى الأخيلية » وقد جمعه وحققه الأستاذان خليل ابراهيم العطية وجليل العطية ، و « شعر خفاف بن ندبة السلمي » وقد حققه وجمعه الدكتور نوري القيسي ، و « الهوى وحديث العينين » للأستاذ فؤاد الخشن ، و « ورد وأشواك » للأستاذ عبد المجيد اليربوعي » ، و « هذا جنى زرعك يا سامري » وهو ديوان كامل في الرّد على ناقد ، نظمه الأستاذ هلال ناجي ، و « الغريب والبحر » للأستاذ مؤيد عبد الواحد ، و « من عيون الشعر » وهو مختارات للأستاذ محمد ناجي القشطيني . هذا ويهيىء الشاعر المهجري الأستاذ عبد اللطيف الخشن للنشر ديوانا من الرباعيات عنوانه « أصفار على الشمال » . ومن الدراسات التي تتناول الشعر « المعاني في نسيب العباس الأحنف » للدكتورة عاتكة الخزرجي و « الشعر الجديد الى أين » للأستاذ غالي شكري .

• وضع الأديب الشاعر الأستاذ بولس سلامة كتابا في أدب التأملات والنظرات عنوانه « من شرفتي » كما أصدر الأستاذ محمود الشرقاوي كتابا من خواطره وشعر شبابه ودروس حياته اختار له عنوان « نسمات وأعاصير » .

• من الكتب التي تعالج مناحي الاسلام كتاب « الاسلام وثقافة الانسان » للأستاذ سميح عاطف الزين ، والجزءان الخامس والسادس من « التفسير القرآني للقرآن » للأستاذ عبد الكريم الخطيب ، و « الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي » للدكتور حسن أحمد محمود .

• وفي الحضارة صدر كتابان هما « حضارة العرب » للدكتور مصطفى الرافعي ، و « حضارة الانسان » لرينيه ماهو وترجمة الأديبين أنطون حمصي ومهاة شرشر ومراجعة الدكتور جميل صليبا .

• ترجم الدكتور راشد البراوي كتابا ضخما لاريك رول عنوانه « تاريخ للفكر الاقتصادي » .

• ما زال الأدب الروائي يتميز بالوفرة والنشاط في جميع فنونه . وقد صدرت أخيرا طائفة من الكتب منها روايات مثل « شجرة الدفلي » للأديبة اميلي نصر الله ، و « جفون تسحق الصور » للدكتور بديع حقي ، و « العروسان » وهي رواية في جزءين لألساندرو مانزوني وترجمة الأستاذ طه فوزي ، ومنها مسرحيات مثل « الناس اللي تحت » للأستاذ نعمان عاشور ، و « الكراكي » للأستاذ نور الدين فارس ، ومنها حكايات مثل « راضية » وهي من الأدب النوبي للأستاذ ابراهيم شعراوي .

• من الدراسات التي تتناول الأدب الروائي صدر هذان الكتابان « في المسرح » لستانسلافسكي وترجمة الأستاذ لويس بقطر ، و « في الرواية المصرية » وهو دراسات نقدية للأستاذ فؤاد دوارة .

• صدر في ليبيا للأستاذ أحمد عاشور راكس كتاب جديد عنوانه « المختصر في الصحافة » .

• من كتب الرحلات كتاب « سندباد في رحلة الحياة » للدكتور حسين فوزي ، وهو يمزج بين أحاديث السائح وتأملات المفكر وخواطر الأديب العالم الفنان في أثناء رحلاته المتعددة .

كما صدرت دراستان جغرافيتان عن العراق هما « بغداد مدينة السلام » لريجارد كوك وقد ترجمه في جزءين كبيرين الدكتور مصطفى جواد والأستاذ فؤاد جميل وعلقا على فصوله ، وكتاب « الحضر » وهو دراسة في بادية العراق للأستاذ ماجد شمس .

• من الدراسات الأدبية التي ظهرت حديثا « أسطورة أوريست والملاحم العربية » للدكتور لويس عوض ، و « التطور اللغوي التاريخي » للدكتور ابراهيم السامرائي ، و « الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الأيوبي » للأستاذ محمود مصطفى ، و « مع الكتب وعليها » للأستاذ عبد الوهاب الأمين ، و « دراسة نقدية تحليلية لرواية نداء المجهول لمحمود تيمور » وضعها الأستاذ فتحي الابياري .

• ظهر للدكتورة رسميّة علي خليل كتاب كبير عن « الارشاد النفسي » يوضح الأساليب التي يتبعها المربون في ارشاد الطلاب نفسيا ومساعدتهم على حل مشكلاتهم .

• وفي التربية ونظرياتها صدر كتابان آخران هما « التربية المتجددة » للدكتور حنا غالب ، وطبعة ثانية من كتاب « من الكائن الى الشخص » للدكتور محمد عزيز الحبّابي .

• ظهر للدكتور حسام محيي الدين الألوسي كتاب فلسفي جديد عنوانه « حوار بين الفلاسفة المتكلمين » .

• في العلوم والرياضيات ظهرت طبعة جديدة من كتاب « الجبر والمقابلة » لمحمد بن موسى الخوارزمي ، وقد حققه وعلق عليه المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرّفة والدكتور محمد مرسي أحمد .

كما ظهر كتاب « المادة وضدّ المادة » لموريس دوكين وترجمة الدكتور رمسيس شحاته .



صهاريج اللؤلؤ

تأليف : الأستاذ محمد توفيق البكري
عرض وتعليق : الأستاذ أحمد حسين الطماوي

ظهرت في العصر الحديث عدة كتب تحاكي فن المقامة القديم ، ومن هذه الكتب « صهاريج اللؤلؤ » لمحمد توفيق البكري ، و « مجمع البحرين » لليازجي ، و « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي .

وتعتبر موضوعات « صهاريج اللؤلؤ » ، صدى لرحلات كاتبها المتعددة من حيث موضوعاتها . فهو يتحدث عن القسطنطينية حديثا رائقا مسهبا ، ويصف مقبرة نابليون وصفا رائعا مهيبا ، ويقف عند غابة بولونيا فيتغزل في بواسق أشجارها ونواضر أزهارها .. الخ . أما من حيث الأسلوب فهو صدى لقراءاته في الأدب القديم ، يتجلى ذلك في استشهاده بأمثال عربية تحضر ذهنه فيسجلها ، وفي استخدامه الألفاظ الحوشية ، التي يحتاج في فهمها الى الرجوع الى معاجم اللغة ، ومثال ذلك هذه المفردات : مرقال (مسرعة) ، يشأز (يذعر ويقلق) ، العضرس (عشب أشهب) ، القرضاب (السيف القطاع) . وان مثل هذه الكلمات منتشرة بكثرة في الكتاب ، حتى قال عنه الأستاذ عمر الدسوقي في كتابه « في الأدب الحديث » : لقد حفظ كثيرا من أمثال العرب وحكمهم وشعرهم وأحاط بغريب اللغة احاطة عالم ، وقد حشدها حشدا في « صهاريج اللؤلؤ » كأنه يتباهى بكثرة ما وعت ذاكرته من ذلك . ولكن لا يخلو الكتاب من فقرات كثيرة تتوافق فيها الألفاظ ، وتتناغم ، وتتجه الى الأذن محدثة بذلك تأثيرا جماليا في النفس . وفي هذه الحالة تكون المفردات متخيرة وسهلة وأكثر تراكيا ، وتحس بجمال التعبير الخلاب .

ومن المعروف أن السيد البكري أكثر من التشبيهات مما أفسد عليه كتابته ، والتشبيه يؤتى به لتقريب المشبه الى ذهن القارىء ، فاذا كان المشبه قريبا وواضحا في الأذهان أصبح المشبه به ضربا من اللغو ، لا ينبغي أن يلجأ اليه الكاتب . فمثلا يشبّه الهلال بالسوار أو القلادة ، وأعتقد أن الهلال معروف بغير تشبيه ، بل ربما كان أشهر من السوار . وأحيانا يستطرد في التشبيهات ، فيشبه الشيء الواحد بأكثر من شيء . وقد قال الأستاذ العقاد في كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » : وقد كان البكري يظن أن التشبيهات مفروضة علينا فرضا ، فلا يجوز له أن يدع شيئا يذكره دون أن يشفعه بشبيه من لونه وشكله . ومن هنا أصبحت أداة التشبيه أظهر حرف في أوائل جمله وعباراته ، فان لم ترد ظاهرة ، وردت بمعناها في كل فقرة وكل صفة محسوسة أو مدركة بالوهم والخيال .

وافراط البكري في استعمال الكلمات الغريبة وفي التشبيهات الكثيرة ، يصرف ذهن القارىء ويجعله ينسى الموضوع الرئيسي الذي كتب من أجلـه الكتاب ، وهذا عيب كبير يؤخـذ على الكاتب .

ومقالات أو مقامات البكري كتبت في عصر شاع فيه اتجاهان في الكتابة : اتجاه يبعث القديم ويحافظ عليه ، واتجاه يدعو الى التحرر من الغريب ومن المحسنات بجميع أنواعها ، الا ما يأتي عفو الخاطر . ويبدو أن البكري في كتابه هذا أراد أن يذكر الناس بمجد العرب القديم من الناحية اللغوية ، فسلك هذا المسلك .

والأدب « صهاريج اللؤلؤ » من نوع أدب المقامات ، مع فروق طفيفة في الشكل . فمثلا في مقامات الحريري نراه يوردها على لسان الحارث بن همام ، ويجعل بطلها أبا زيد السروجي . في مقامات الهمذاني أسند روايتها الى عيسى بن هشام ، وعزا نشأتها الى ابن الفتح الاسكندري . ولكن في صهاريج اللؤلؤ نجد البكري يسند رواية المقامات لا على لسان شخص آخر ، بل على لسانه هو . وهذا هو الفرق الوحيد من حيث الشكل ، ويبقى لها بعد ذلك ما للمقامات من خصائص ومزايا .

واذا انتقلنا الى فحوى « صهاريج اللؤلؤ » نجد أن معظم الموضوعات التي تطرق اليها موضوعات شعرية ، فهو يتحدث عن البحر ، والفجر ، وطلوع الصباح ، والمياه والغدران ، والشتاء ، والهلال ، والليل والنجوم . ويقول بأن الطبيعة موجودة أمام كل الناس ، فهي لا تستغرق الأدب ، ولا هو يستغرقها ، ولذا فتغزل الأدباء في الطبيعة لا ينتهي ، كما أن جمال الطبيعة سيظل موضوعا خصبا يستقي منه كل الشعراء معانيهم وأخيلتهم ، ومن ثم يعبر شاعر عن الطبيعة بأحاسيسه الخاصة وبنفسيته ومزاجه ، ولكل فنان زاوية التقاط ، حيث أنه يعايش الموضوع بكل حواسه اللاقطة .

ونقف عند وصفه لـ « غابـة بولونيا » ، فنراه يقول : « بطاح في بطاح ، وروضة فساح ، وشجر دواح ، وطرق بـين الأدغال ، كهدى في ضلال ، وشموس بين الأشجار ، كأنها نثار ، وكأن الأزهار في حيالها فرش ، والأنهار في خلالها صوارم في كف مرتعش » . فهو هنا يرسم ما تمثله من المحسوسات صوراً مبرقشة ساحرة الألوان ، مبينا فيها تكوين الأشكال والأجسام . ونلاحظ أن هذا الوصف التصويري يتكيء على الأشكال البلاغية ، ويمتلىء بالصور البيانية ، ونجده يلجأ الى استخدام التصويـر الاستعاري ليكشف به عن تمايز الأشياء وفرديتها ، لأن اللفظ أداة ناقصة في نقل احساس الكاتب للقارىء . وفي معظم المناظر التي تولى السيد البكري وصفها ، اكتفى بالوصف الحسّي كما هو ماثل أمام الحواس في عالم الواقع ، ولم يبين أثر هذه الأشياء الموصوفة في نفوسنا التواقة الى الجمال ، أو يظهر مقدار وقعها في الوجدان . وهو يعط الوصف أحيانا في مشهد معين مع توليد الصور ، يجيء بأصفى الأساليب ،

وبأوفى الجمل ، تسندها أنور الألفاظ وأشرف المعاني . ولا يمكننا أن نغفل أن هذه الأوصاف تدل على دقة الملاحظة التي تلفت المرء الى الأشياء الدقيقة والجليلة معا ، لأن الالتفاتات الذهنية ، والانتباهات النفسية الى الأشياء ، والعناية بها تزيل عنها التفاهة وتبرز قيمتها .

وفي مرثيته « الكنز المدفون » لا نشعر فقط بالاستحثاث لعواطفنا تجاه هذه النكبة الصادعة ، والمحنة العاصفة ، والفجيعة التي كانت تلعج وجدانه ، بل انها تشيع فينا التفكير ، وتكشف جانبا من التشاؤم الذي يلحق بالمرء في مثل هذه الحالات .. فهي من ناحية أكثر نصيبا من الوجدان وصدق العاطفة ، فلا نحس أنها مرثية أكثرها استصراخ وألم ، ولا معظمها رياء وتصنع بغية الكسب والتقرب ، كما كان حال كبار الشعراء في الدولة العباسية ، ولكن نستشعر الآلام المبرحة التي اكتظت بها شغاف نفسه ، والأحزان الموجعة التي امتلأت بها شعاب قلبه . ومن ناحية ثانية فانها تبين لنا اتجاه ذهن المؤلف نحو فكرة الموت ، وتكشف عن تطيره ، ولا شك أن الوعظ هو الهدف الذي كان يسعى اليه المؤلف ويتغياه . وليس هذا غريبا فقد عاش البكري في جو ديني تغلب عليه السمة الصوفية ، وليس غريبا أيضاً أن يدعم الأخلاق ويحث عليها .

ومن ناحية ثالثة فان المرثية يغلب عليها التأنق في استنباط الأخيلة والاستعارات والتشبيهات ، فيقول : « أنظر هذه المقابر بالحاجر ففيها بلاغ ومعتبر ، لمن ادكر ، تر كل جدث كأنه علم منصوب بين الساهرة والآخرة ، خط متضايق ، فيه جميع الخلائق ، كالقلب صغير ، وفيه العالم الكبير ، وكأن تلك القباب في القفار ، قباب ضربت على سفار ، مشيد ومضمحل ، وسواء قبر مثر ومقل ، وكأن سكانها صرعى مدامة ، أو نيام في ليلة صباحها يوم القيامة » .

ويعرض في مقامة « العزلة » لفترة مظلمة حزينة ، ويبرز ملامح الصور لعصر مائج ، ومجتمع بائر ، ويعدّد عيوب الجماعات المتدهورة ، ويشير الى انتشار السقطات الاجتماعية ، وشيوع المباذل والمحظور . وهذه الحياة كانت تعيشها كثرة كاثرة ، ولا تعيشها ندرة نادرة ، تفضل العزلة والاحتجاز ، لأن الحياة في هذه الحالة البائسة تصبح سخيفة مع عشرة لئيم مخادع أو حقود ذليل ، أو متملق أفاق يتودد ذلا وخضوعا ، أو حسود يظهر غير ما يضمر ، أو متفصح وهو أبكم متعال . وأنه يتخذ من هذا الموضوع الذي يثيره مرقاة الى مثل عليا وقيم سامية .

والقارىء لشعر البكري الذي جاء في هذا الكتاب يجده متأثرا فيه الى أبعد حد بالطرق الفنية الموروثة في الشعر العربي شكلا ومضمونا ، بل انه لم يخرج عن موضوعات الشعر القديم ، كالرثاء والغزل والحكمة والوصف والمدح . بل نجده يستهل قصائده بذكر دور مي واللوى ، وذلك لأنه تغذى بالأدب القديم ، وخاصة أدب العباسيين . وقد مدح السلطان عبد الحميد بقصيدة طويلة لأنه دافع عن الاسلام ، كما رثى أباه بقصيدة مؤثرة . ومما يلفت النظر في شعره أن بعضه شعر مرسل ، وهو الشعر الموزون غير المقفى . وقد نظمت عدة قصائد في مطلع هذا القرن من هذا النمط للزهاوي وعبد الرحمن شكري ، وحجة هؤلاء أن القافية تميت المعنى وتقيد الشاعر . وليس البكري ولا الزهاوي أو شكري هم الذين ابتدعوا هذه الطريقة ، بل هي منذ عهد العرب الأولين ، ولكنها طريقة ليست مستملحة ، لأن الموسيقى تنعدم معها .

ويشيع في أبيات البكري شعر الحكمة الذي يعتبر الى حد كبير التفاتات فكرية وخلاصة تجارب نفسية ، وقد تجري في أغلب الأحيان مجرى المثل السائر ، الا أن أجمل الحكم ما جاء في صور شعرية ومعان نفسانية ، وما جاء نتيجة تجارب ذاتية . ولكن الحكمة التي تلقن بالتعاليم أشبه بالمتون المنظومة ، وفي شعر البكري تأتي الحكمة دون قصد منه ، وهي بذلك تزين شعره . هذا فضلا عن أنها تأتي في صور شعرية جميلة يقبلها الذوق وتطيب لها النفس ، فهو لا يقول الحكمة الا اذا أنضجها الشعور والتفكير . وسنعرض هنا بعض حكمه ، وهي تدل على مزاجه وطريقة تفكيره :

ان أحرجوا صدرك لا تنبعث
للقذع بالفحشاء أو مثله
فغضبة الأحمق في قوله
وغضبة العاقل في فعله

وقوله :

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة
فتنوء منه بفادح الأثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها
ألم المريض عقوبة الاهمال

والشعر الذي نراه في ثنايا المقامات خطرات ذهنية تنشأ من خلال الأحداث المتعاقبة لموضوعه .

وقد ولد البكري في مصر عام ١٨٧٠ ، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة في بيته على يد فقيه خاص ، وحفظ القرآن ، وتعلم مبادىء العربية ، ثم دخل المدرسة العلية ، ودرس مبادىء الرياضة والتاريخ والجغرافية واللغة الفرنسية علاوة على اللغة العربية . ولم تلبث هذه المدرسة أن أغلقت ، فعكف في بيته على الدراسة فأخذ بحظ وافر من الثقافة الاسلامية والعربية ، وأغرم بالأدب القديم ، فاستوعب كثيرا من شعره ونثره ، مما ظهر أثره واضحا فيما نثر ونظم . وكانت لديه مكتبة تضم آلاف المجلدات .

وقد تولى مشيخة السادة البكرية ، وهو في العشرين من عمره (يناير ١٨٩٢) ، فكان أول شيخ لها يلمّ بالثقافة الغربية ، الى جانب الثقافة العربية الاسلامية . وقد مكنته ثروته من أن يقوم برحلات عديدة الى بعض البلاد الأوروبية ، كانجلترا ، وفرنسا ، وايطاليا ، والنمسا ، كما زار الآستانة عام ١٨٩٢ ، حيث قابل السلطان عبد الحميد ، الذي أكرم وفادته ، وأنعم عليه برتبة قاضي عسكر ، وهي أكبر رتبة يحوزها رجال الدين في ذلك الوقت . وقد أوحت اليه هذه الزيارات بتأليف كتابه « صهاريج اللؤلؤ » .

وقد دعا البكري الى التعليم العام الاجباري في كل مراحله والى انشاء جمعيات اسلامية لمحاربة الذين ينذرون بفناء الاسلام وانتهاء أمده . كما انه هب مدافعا عن اللغة العربية عندما وجد الكثيرين يطعنون في أصولها ، ويدعون الى العامية . ونادى بتأسيس جمعية علمية غايتها ترقية الفنون العربية ، والمحافظة على قوانين لغتها . فتم تأسيسها في عام ١٨٩٢ ، وكان البكري رئيس الجمعية ، والشيخ محمد عبده والشيخ الشنقيطي نائبين للرئيس . وقدم الى « مجمع اللغة العربية » في جلسته الأولى صيغا لعشر كلمات أجنبية لم يكن لها مرادفات في اللغة العربية حتى ذلك الوقت ، منها : مرحى ، وبرحى ، و مدره ، ومسرة ، وبهو ، وقفاز ، ووشاح .

وتوفي البكري رحمه الله عام ١٩٣٠ م عن ستين عاما حفلت بجليل الأعمال ■



القيروان

قاعدة الفتوح الاسلاميّة في شمال افريقيا

وحيدة بين ساحل البحر وسلاسل الجبال ،
وفي منأى عن تلاطم الموج وعصف الرياح تقوم مدينة القيروان
في سهل منبسط ، لا يكاد يميزه الا وجودها فيه بجدرانها الصفراء المشوبة بحمرة الصدأ ،
وقباب مئات المساجد ومنابرها المنتصبة ، ومقابرها المتناثرة حولها منذ قرون ، ورغاء قطعان ابلها وهي تجوب البراري القريبة بحثا عن الكلأ . والقيروان بتفردها ذلك وانعزالها ، تمكنت من المحافظة على أصالتها ، فظلت ذات طابع عربي اسلامي صرف على مرّ السنين .
في المساء ، وعندما تجرجر ذكاء ذيولها ، فتتجلل جبال المغرب وسهولها بأبراد الليل ، لا يسمع في القيروان الا صوت المؤذن يرتفع من منارة المسجد الكبير آمرا غامرا : « ... حي على الصلاة .. حي على الفلاح .. الله أكبر .. لا إله إلا الله » .
وخبب جمال قوافل زوارها من أفواج المؤمنين ، حتى اذا صمت المؤذن ، وأغلقت متاريس مداخل الأسوار ، نامت القيروان قريرة العين هادئة ، لتستيقظ مع أذان فجر اليوم التالي ، وتعود تزخر بالحركة والنشاط من جديد .

بنى القيروان عام ٥٠ للهجرة « عقبة بن نافع » الصحابي الجليل والقائد الفاتح ، في موقع كان صحراء خاوية خالية الا من عين غزيرة ترقرق ماؤها بمشيئة الله عذبا ، فعسكر عندها ، وعسكر جنده وأسس المدينة . ولعل القيروان من المدن التونسية القليلة التي نشأت ونمت عربية ، اذ لم تقم في موقعها من قبل أية مدن رومانية أو بربرية ، كما أن الأتراك والفرنسيين لم يضيفوا اليها شيئا يذكر ، بل لعلهم لم يحدثوا فيها أي تغيير رئيسي .

ولأنها كانت قاعدة الفتح العربي ومنطلقه في المغرب الأفريقي واسبانيا ، وعاصمة الحكم الاسلامي لأفريقيا طوال قرون خمسة ، فان سكانها يفخرون بأنهم عرب أقحاح . ويباهي أغلب عرب شمال أفريقيا بأن القيروان صرح من صروح الاسلام المجيدة خارج الجزيرة العربية ، فلا تكف قوافلهم عن الوفود اليها في كل مناسبة ، تحمل أفواج المؤمنين ، حتى اذا ما وصلوا اليها نصبوا خيامهم في مشارف المدينة ، أو نزلوا في فنادقها وخاناتها ليستريحوا من عناء السفر ، ثم اذا أصبح أحدهم لا يدع مسجدا أو مقاما أو أثرا الا وزاره بقلب خاشع ونفس راضية مؤمنة .

أما السائح الأجنبي فهو ملزم باصطحاب دليل مرخص لزيارة المدينة . فاذا هو فعل ، استطاع أن يزور مسجد القيروان الكبير مثلا ، أو غيره من المساجد في فترات ما بين الصلوات ، كما يسمح له بزيارة أي من آثار المدينة الأخرى . والأدلاء السياحيون في القيروان سواء ! سحن قيروانية صرفة تميزها ملامح عربية ، وألسنة لا تكف عن ذكر التواريخ والأسماء والمناسبات مما يتعلق بالأثر المرئي أو لا يتعلق . حتى ليخيل للزائر انه على قدر يرثى له من الجهل بتاريخ هذه المدينة الاسلامية الزاهرة .

يقودك الدليل أول ما يقودك في القيروان الى مسجد الصابرين : « بني هذا المسجد منذ نصف قرن . وهو المفضل عند بسطاء الزائرين . بناه سيدي المرابط الحداد الخزاف . وكان رجلا فاضلا ، فملأه بأثاث فاخر صممه بنفسه ، ضم سيفا كبيرا مغمدا عبثا يحاول الزوار استلاله من غمده . وغليونا كبيرا تزينه نقوش ورموز عديمة المعنى . » وتضم ساحة هذا المسجد قبور بانيه وابنته وخادمه ، بينما تنفتح قبته السابعة عن سماء زرقاء صافية .

يلي ذلك مسجد الأبواب الثلاثة ، وهو بناء جميل أنيق شيد في القرن التاسع ، تزينه النقوش العربية . وقد أضيفت اليه منارة عالية في منتصف القرن الخامس عشر للميلاد . ثم لا تلبث أن تزور مسجد المزيّن (الحلاق) الذي يدعوه العامة مقام سيدي صاحب . ويقع هذا المسجد خارج أسوار المدينة ، وكأنه مدينة صغيرة منفصلة . فقد بنيت الى جانبه مدرسة وملجأ وتكية للفقراء . ومع أن بانيه توفي على الأرجح في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) الا أن المسجد لم يجدد الا في القرن السابع عشر عندما أضيفت اليه منارة مطعمة بالمرمر والرخام ، ورصفت أروقته ببلاط فاخر جميل . ولا يسمح لغير المسلمين بزيارة المساجد التونسية الا في مدينة القيروان .

وبالاضافة الى مكانة القيروان كمدينة تضم كثيرا من آثار الرواد المسلمين ، كان لموقعها أهمية كبرى بالنسبة لنشر الاسلام في ذلك الجزء من العالم ، فقد واجه « عقبة بن نافع » لدى وصوله الى موقعها عدوين لدودين هما البيزنطيين والبربر . ولكن اختياره لموقع القيروان الفريد في منأى عن هجمات الأسطول البيزنطي ، وفي مواجهة معاقل البربر الجبلية ، مكّن عسكره من مجابهة الأعداء والتصدي لهم والتغلب عليهم . ففي البداية رحب البربر بالفاتحين العرب كقوة معادية للبيزنطيين ، أعداء البربر التقليديين آنذاك ، فأسلم خلق كثير منهم وأنضموا لجند عقبة ، الا أنهم نكثوا العهد ، فحارب عقبة مرتديهم وعاقبهم عقابا شديدا ، ومع ذلك أخذ البربر يتصدون للعرب ، بل وانضموا الى جانب البيزنطيين ضدهم . فما كان من والي مصر الا أن عزل عقبة ، وأرسل مملوكه دينارا ، وقد حرره ، ليحل محله آمرا على القيروان ، فسجن هذا « عقبة » وقيده بالسلاسل ، وعقد صلحا بينه وبين « كوسيلا » زعيم البربر وقائدهم ، وانصرف الى مزيد من الفتوحات حتى ضمت ولايته مشارف تلمسان .

بيد أن الخليفة الأموي معاوية أمر باعادة عقبة واليا على القيروان ، وذلك بعد عشر سنوات من عزله ، فعاد عقبة اليها ، وسجن غريمه دينارا ، فاضطر « كوسيلا » الى الفرار واللجوء الى الجبال ، وأتم عقبة فتح شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلسي ، ولكنه في طريق عودته تعرض لهجوم بربري ، فقتل هو وسجينه دينار الذي أطلق سراحه عقبة ليحارب الى جانبه ، فتقلصت دولة العرب في شمال أفريقيا نتيجة لذلك حتى انحصرت في ليبيا فقط ، وسقطت القيروان بيد « كوسيلا » وآل أمرها اليه .

وهكذا كان على العرب أن يعيدوا فتح هذه المدينة ، وبالفعل تم لهم ذلك عام ٧٠ للهجرة (٦٨٨م) ففتحوا القيروان ، وقتلوا « كوسيلا » . وبعد تسع سنوات تم لهم القضاء على البيزنطيين عندما استولوا على قرطاجة . بيد أن البربر استمروا يقاومونهم ردحا من الزمن ، ولكن الحنكة العربية الفذة أعادت الكثيرين منهم الى حظيرة الاسلام ، وقضت على البقية الباقية من المقاومين ،

منظر داخلي لمسجد « المزين » ، مقام سيدي صاحب ، وتبدو جدرانه مزدانة بنقوش وزخارف جميلة .



مظهر من مظاهر الاحتفال بعيد الفطر في القيروان ، حيث يؤدي الرجال رقصات شعبية على ايقاع الطبول أمام جماهير المشاهدين .

ونعمت منطقة القيروان بفترة من الهدوء والاستقرار .

تمكن العرب من فتح أفريقيا دون صعوبات تذكر ، ويعزى ذلك الى أن البربر انخرطوا الى جانبهم في سبيل نشر الاسلام ، والى أن المحارب المسلم كان يؤمن بالدافع الذي يحارب من أجله ايمانا لا يتطرق اليه الشك ، فإما النصر ، وهو مطلب وهدف ، وإما الشهادة وهي خير وأبقى . ومع أن المسلمين لم يكرهوا أحدا على دينه الا أن غير المسلمين من نصارى ويهود اعتنقوا الاسلام ، حتى ان النصرانية اختفت من شمال أفريقيا خلال قرن واحد من حكم العرب لها .

ويعتبر تأسيس القيروان من الأحداث المهمة التي حولت مجرى التاريخ ، فقد أريد لها أن تكون قاعدة اسلامية ثابتة لا لمجرد الانسحاب اليها بعد غزو أو اغارة ، ولكن لتكون منطلقا الى فتح بقاع ومناطق أخرى لنشر دين الحق فيها . ولعل القرن التاسع الميلادي هو العصر الذهبي لهذه القاعدة ، فقد استولى « ابراهيم بن أغلب الجزائري » عليها عام ٨٠٠ ميلادية ليبدأ حكم الأغالبة فيها . وأمعن الأغالبة في المدينة اصلاحا وبناء فابتدعوا نظاما للري فيها وأحاطوها بالبساتين الفيحاء والحدائق الغناء من كل جانب ، وبنوا القلاع والحصون على طول الشواطىء المتاخمة لها ، وشيدوا القصور والبلاطات خارج أسوارها ، وانفتحوا على العالم فشرعوا يستقبلون السفراء في قصورهم تلك ، وصارت القيروان تحت حكمهم حاضرة أفريقيا الأولى لا يضاهيها حضارة وازدهارا وتقدما الا مدينة قرطبة في الأندلس .

ولم يكتف الأغالبة بالاصلاح والعمران ، فشرعوا في نشر الدعوة الاسلامية ، وفتح الأمصار المجاورة واخضاعها لدين الله ، ففتحوا مالطة وصقلية ، واجتاحوا باري ومسّينا ، وغزوا مشارف البندقية . واستطاع أسطولهم عام ٨٤٦م أن يجتاز « أستيا » ، وبذلك تمكن المسلمون من الوصول الى مشارف روما والاستيلاء على كثير من كنوزها . غير أن سفنهم تعرضت لعاصفة هوجاء تسببت في فشل الحملة واخفاقها . ولما حاولوا شن حملة مماثلة على المنطقة نفسها تعرضت سفنهم مرة أخرى لعواصف عنيفة استطاع الفرنجة والبيزنطيون على أثرها أن يقصوهم عن أواسط ايطاليا في حين بقيت « باري » سلطنة اسلامية مستقلة . أما صقلية فقد بلغت أوجها الحضاري تحت حكم العرب الذي امتد فيها مائة عام أو نيف .

وبانتقال سلطة الحكم الى الفاطميين ، عام ٩٧٢م ، ترك أمر ادارة صقلية لدولة عربية محلية في حين طلب الى احدى العائلات البربرية أن تمثل الحكم الفاطمي في القيروان التي كانت تعيش غسق أوجها ، دون أريافها المزدهرة . وظل البربر يجمعون الزكاة في القيروان ويرسلونها الى الفاطميين في مصر ، وظلوا يدعون للخليفة الفاطمي على منابر مساجدها حتى استكبر بعضهم ذلك ، فنكثوا العهد وامتنعوا عن دفع الزكاة . فما كان من الفاطميين الا أن شنوا عليهم حربا تأديبية ، فاندفع آلاف من أعتى جندهم وأتوا على كل صغيرة وكبيرة في المدينة وما حولها حتى غدت خلال ست سنوات فقط خاوية على عروشها ، خالية من كل ما كانت تنعم به من الخيرات والثمرات . ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، فقد تعرضت المنطقة بأكملها طوال مائتي عام لسلسلة من الحروب والغزوات نتج عنها ان أصبحت كل من تونس وصفاقس امارة مستقلة ، كما استطاع « النورمان » احتلال مدن الساحل في صقلية ، في حين حاول قراقوش الأرمني أن يقتطع الأجزاء الجنوبية من المنطقة . وانخرط بربر شمال أفريقيا مع بربر اسبانيا في نزاع دام على حكم البلاد الى أن تمكن « أبو حافظ الجزائري » من السيطرة على المنطقة ، فاتخذ من تونس عاصمة له بدلا من القيروان ، وأطبق الليل البهيم بسجاف ظلمته على المدينة القاعدة ، حصن عقبة ، ومعقله ، ومنطلق جنده



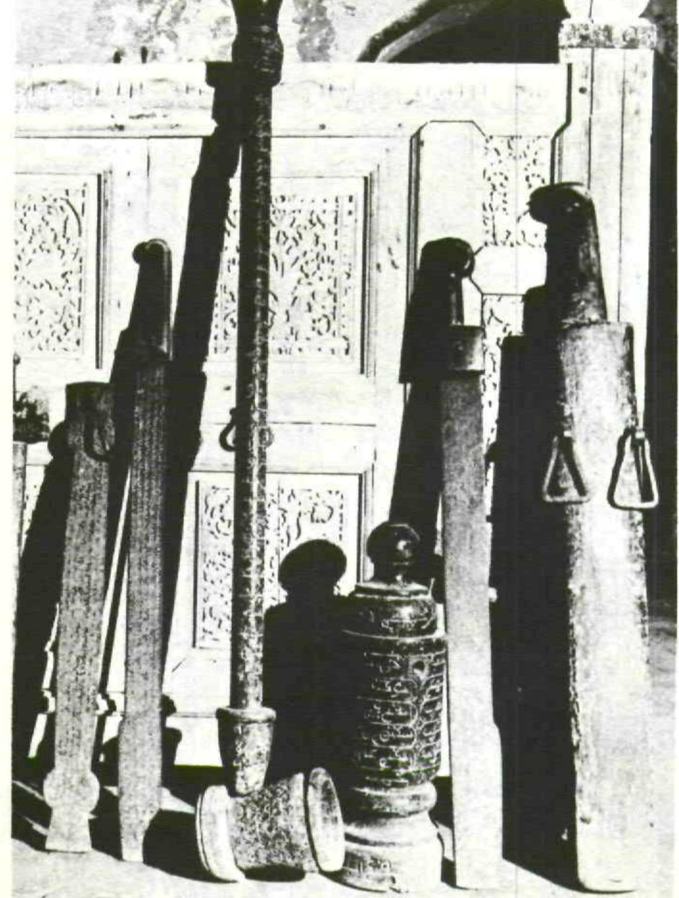
روعة الفن المعماري الاسلامي تتجلى في هذه الصورة لأحد مساجد القيروان .



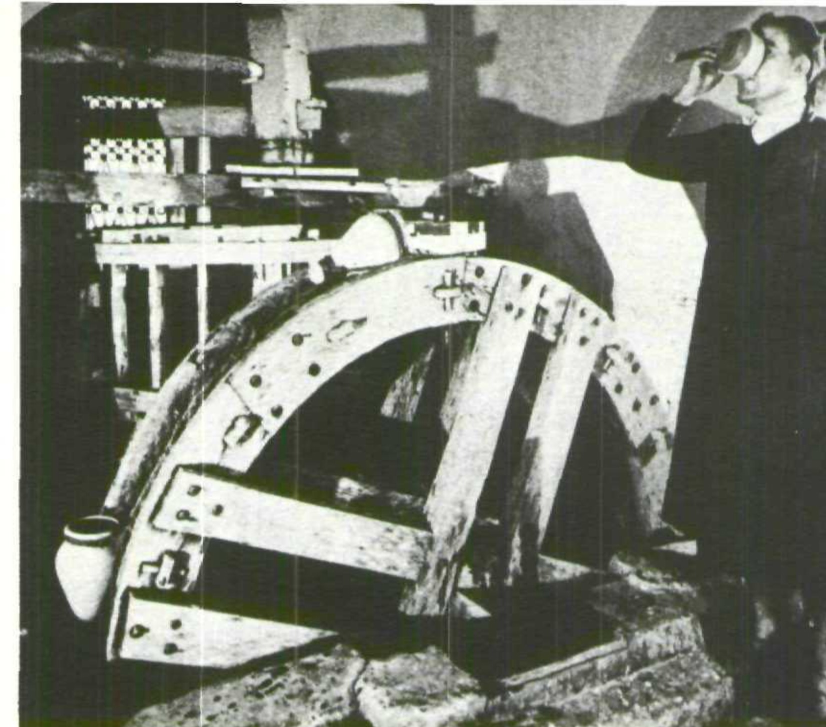
المرأة القيروانية في زيها التقليدي والحديث .



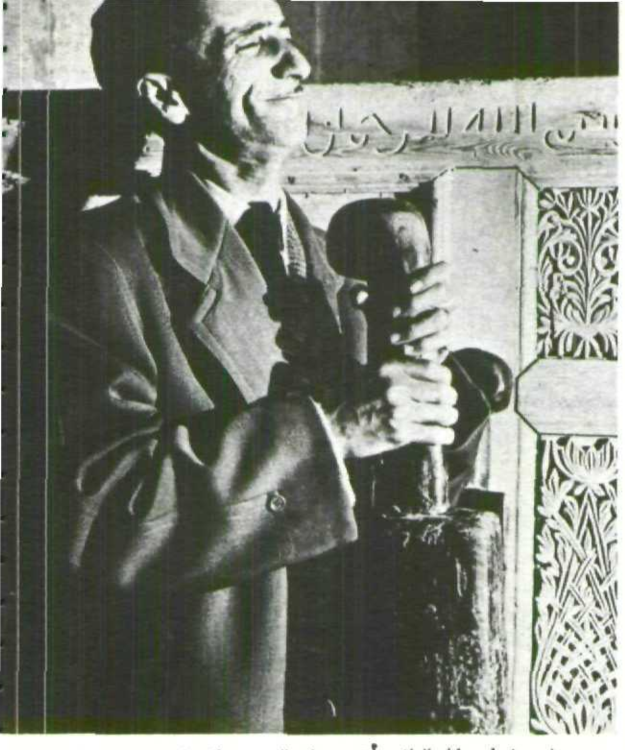
فتاة قيروانية تقوم بصنع سجادة في ساحة منزلها .



بعض المعروضات الأثرية في مسجد الصابرين ، وهي تضم سيوفا ضخمة وغليونا محلى بنقوش عربية .



أحد الزوار يشرب الماء من بئر « باروقا » وهو الاسم الدارج لعين الماء التي اسس عقبة بن نافع القيروان على مقربة منها .



عبثا يحاول هذا الزائر أن يستل السيف الثقيل من غمده اذ يبلغ وزنه نحو ٢٥ كيلو غراما وهـو محفوظ في مسجد الصابرين بالقيروان .

برسالة الخير والسماح الى شمال أفريقيا ، فلم يعد يبقى لها من الماضي العريق الا أصداء ذكراه ، ومنائر مساجده ، والأذان الخالد : « الله أكبر .. لا إله إلا الله . »

ومسك الختام ،كما يقول الدليل ، هـو مسجد القيروان الكبير ، وهـو مسجد « سيدي عقبة » ومزاره ، ويقوم في حي من المدينة قديم بـين شوارع مهملة وبيوت مهجورة ، ويشبه بجدرانه المائلة ودعائمه الثقيلة قلعة ضخمة رصت مداميكها بطبقات كثيفة من الطين والجير . وفي أحد جوانبه ، يقوم برج من الطوب يحاذي بضع قباب هي سقفه . واذا ما دخله الزائر واجهته ساحة فسيحة ذات صفوف من الأعمدة في ثلاث من جهاتها ورواق في الجهة الرابعة . وخلف الرواق تواجه الزائر قاعة للصلاة فسيحة تدعم سقفها أعمدة ضخمة ، ومقابل الساحة يرتفع برج مربع ذو شرفتين مبيضتين بالجير وقبة،هو مئذنة المسجد ومنارته .

ومسجد « سيدي عقبة » هو أقـدم صرح اسلامي في المغرب ، ولعل بعض أجزائه من أقدم الآثار الاسلامية في العالم . الا أن المبنى الذي اختطه « عقبة بن نافع » له لم يعد قائما ، لأن المسجد جرى تجديده وترميمه مرات كثيرة ، ومع ذلك فهو نموذج للمساجد الاسلامية الأولى ، ويشبه الى حد بعيد الحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة من حيث تخطيطه وهندسة بنائه .

وهو يعكس روح بنائه من رواد المسلمين الأشداء الأقوياء الذين نذروا أنفسهم لله دون سواه ، والذين كانت مدنهم هي معسكراتهم ، ومساجدهم هـي قلاعهم ، فحققوا أروع الانتصارات وأسمى الأمجاد . والى جانب منائر مساجد القيروان التي تبدو وكأنها ثريات مدلاة من السماء ، تبدو منارة المسجد الكبير وكأنها طود يرتفع من الأرض بثقل وضخامة وقوة ، ويبدو بابها الوحيد كباب كهف مظلم ، ولعل الغرض من اقامتها على هذا الشكل هو اسماع صوت المؤذن الى كل بيت في المدينة دون تباه بعلو أو ميس يزينة .

على أننا اذا نظرنا الى المسجد عن كثب ، وجدنا انه ليس على هذه الدرجة من البساطة في البناء والتخطيط ، فجدرانه مثلا عبارة عن كتل ضخمة يمتزج فيها الطوب بالحجارة والجير بالطين وتعززها قطع من الرخام عليها كتابات لاتينية لم يراع انتظامها . في حين تحيط بباب المنارة ثلاث قصعات أثرية مزينة بالنقوش ، أما درجها فهو منحوت من صخور قديمة ، في حين أن الأعمدة المتناثرة في المسجد تشكل مجموعة من نماذج العصور الوسطى والقديمة ، وهي من رخام أو عقيق أو غيره ، ويعتقد انها اجتلبت من المعابد والمسارح الرومانية ، وقصور الفندال ، وغيرها من مخلفات الحضارات التي سادت البلاد ثم بادت ، فجدعت كيفما اتفق ووضعت في أمكنتها من المسجد دون أن تخلف أي انطباع يمت الى مصادرها الحضارية بصلة ، ولكنها ذات طابع مستقل يوحي بـأن المسجد الكبير كان حصيلة عمل جاد سريع لتثبيت دعائم الدين الحنيف دون سواه ، ممثلا في بيوت الله التي يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر من خيـار المؤمنين .

ان مسجد « سيدي عقبة » عالم قائم بحد ذاته . فأمام بابه في الساحة المواجهة يلتقي الرجال يصافحون بعضهم بعضا ، ويروح ويغدو وحراسه بلباسهم الأنيق بين أروقته وباحاتـه لتخفيهم أبواب ودهاليز معتمة . واذا دخل الزائر المسجد في فترة ما بعد صلاة العصر رأى بضع حلقات يلتف فيها الطلبة حول شيوخهم يتعظون بالمواعظ الحسنة ويتلون ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، ويبقون كذلك الى أن يرتفع صوت المؤذن فينتظم الصغير والكبير في صفوف ، ويكبر الأمام ، وتبدأ الصلاة . ■





منارة مسجد المزين في القيروان وبوابته الرئيسية، ويعود تاريخه الى القرن الأول الهجري



مبنى قصر الإمارة في منطقة الأحساء.
ويغلب على بنائه الطابع العربي الأصيل

تصوير: أحمد منانع